نوابغ الفكر العربي

٣

الشيخ نجيب الحدّاد

بقلم عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

الشيخ نجيب الحدّاد

نوابغ الفكر العربي

٣

Ghadbān, ʻĀdil

الشيخ نجيب الحدّاد

١٨٦٧ - ١٨٩٩

بقلم عادل الغضبان

شعلة من العزم والذكاء ولألاء من الوحي والشاعرية تلاقيا في إهاب جسم ناحل فاحترق باللهب وخلد مع النور .

al-Shaykh Najīb al-Haddād 1867-1899



دار المعارف بمصر

الفصل الأول

عَصرِ نجيب الحدّاد

١ ـ الحركة السياسية

كانت مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مسرحاً لألاعيب السياسة فقد كانت فريسة الشدّ والجذب بين طمع الدول الأوربية وأهواء الباب العالي وأثَرَة الأسرة الحاكمة .

وكان الشعب المصري قد اتقد في جوانحه الوعي الوطني فهبّ يطالب بحقه المهضوم ويخوض الحديد والنار إلى غايته المنشودة .

ولقد أيقظ في الشعب المصري ذلك الوعيَ المرهف عواملُ عدّة بدأت تفعل فيه فعلها منذ مطلع القرن :

هزّت المصريين أولاً جلبةُ الحملة الفرنسية وما تركته فيهم من آثار قومية وثقافية فتحوا أعينهم فيها على مظاهر جديدة تحفل بها الحياة وتهيم بها النفوس .

وأثارهم ثانياً دويّ الثورة الفرنسية الثانية فقد نبهتهم إلى معان جديدة لا تستقيم بغيرها الحياة الحرّة الكريمة فعرفوا صيحة الإنسان في المطالبة بحقوق الإنسان وتردّدت على مسامعهم أصواتٌ تحمل إليهم نغمات الحرية والإخاء والمساواة فعصفت بالرماد الذي كانت تضطرم تحته جمرات الوطنية .

وحرّكت نفوسهم ثالثاً إلى التمرد والتحرّر مظالم قاسية رسفوا في أغلالها وضربها عليهم الولاة والحكام من كل صنف وجيل .

وزادهم رابعاً في الحق صلابةً وبأهداب الحرية والكرامة تمسكاً وتوثّقاً قيامُ الحرب السبعينية وما عكسته على الشرق من أضواء وظلال وما ضربته لبنيه من روائع الأمثلة في الوطنية والبذل والتضحية(١) .

(١) طالع في هذا كتاب « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو اليسوعي وكتاب « أدب المقالة الصحفية في مصر » لعبد اللطيف حمزة ج ١ و ٣

كل هذه العوامل كانت نيرانها تتأجّج في كل قلب من قلوب المصريين سواء من سكن منهم الحواضر والعواصم أم سكن الدساكر[١] والقرى .

ثم احتاجت تلك الحماسة الجيّاشة في الصدور إلى اللسان الناطق والقلم المفصح المبين لكي تتنفّس وتنطلق إلى مداها فكانت منابر الخطباء ومنصّات المدرّسين مسرح اللسان المعبّر وكانت منابر الصحافة والتأليف حلبة للقلم يوجّه منها ويرشد وينفث الحمم ويذكي السعير .

وما من شكّ في أن انتشار العلم منذ فجر القرن حتى العقد السابع منه قد ساعد على إعداد الوطني الصالح وأن التفات المتعلمين شطرَ الغرب يغترفون من مناهله ويأخذون عنه الأمثلة الحسان كان له شأن أيُّ شأن أدرك به الشعب المصري أنه كغيره من الشعوب الجديرة بالحياة في ظل العدل والحرية والإخاء والمساواة ولولا الاستعداد المكتسب وقد جاء يرهف الاستعداد الفطري في نفوس المصريين لما كان للسان والقلم ذلك الأثر الفعّال الذي هزّ النفوس وحفزها إلى التحرر والانطلاق .

وبينا النفوس في وسوسة ثم في همهمة وبينا هي تتلقى كلمات الخطباء والكتّاب تلقّيَ الأرض الخصبة للغيث العميم وبينا هي تثيرها منظومات رفاعة رافع الطهطاوي الوطنية وتستوعب « المرسلياز » نشيد فرنسا الوطني وكان رفاعة أول من ترجمه ووضعه أمام أعين المصريين إذ يقبل على مصر في سنة ١٨٧١ رجلٌ شرقي عظيم هو السيد جمال الدين الأفغاني فيلهب النفوس بتعاليمه ويدقّ في مصر ناقوس الفكر الحر فيلتفّ حوله الطلبة والمريدون وتسري آراؤه في الأمة المصرية سريان الكهربا فكلٌّ بها مهتزّ وكل لها متأثر وكل يسعى إلى سماع أحاديث هذا الزعيم العظيم .

ومكث الرجل في مصر ثماني سنوات محفوفاً بالتجلة والإكرام ممتد الأثر والنفوذ لا يني عن بثّ آرائه السياسية والفلسفية في اتحاد الشعوب الإسلامية وفي مشاطرة الأمة حياة الدولة وفي خطر التدخل الأجنبي حتى ثقل ظله على ذوي السلطان فأبعد من مصر ولكن بقي منه فيها روح وثّاب أبيّ يتردد في

---

(١) الدساكر : جمع دسكرة : القرية العظيمة .

جوانح تلاميذه من مثل المويلحي وعبدالله نديم وأديب إسحق ومحمد عبده ويتوغل في طبقات الشعب المستنيرة من أطباء ومدرسين وضباط وموظفين ويغرس فيهم بذور الوطنية فنمت وزكت وآتت أكلها .

وكانت الألسنة والأقلام من قبل مجيء جمال الدين الأفغاني إلى مصر وفي إبّان إقامته بها وبعد خروجه منها لا تفتأ تبثّ الدعوة للحرية وتمعن في تلقين النفوس معاني الوطنية فنرى مثلا عبدالله أبا السعود تلميذ الطهطاوي ينقل إلى العربية تاريخ مصر ويمهره بمقدمة يشرح فيها معنى حب الوطن فهو شيء أعلى من التعلق بمسقط الرأس فإنه يقوم على حب العمل الجيّد وعلى الرغبة في التعاون وعلى روح التضحية في سبيل الخير العام . ونرى كذلك حسيناً المرصفي في « الكلم الثمان » يفسّر الكلمات التي كانت تشغل أذهان الطبقة النيّرة من مثل كلمة الوطن والحرية والحكومة ومالبث هذا ديدن الخطباء والكتّاب حتى انبعث الضمير الوطني في القلوب فتذمّر وتمرّد ونشأت عن ذينك التذمر والتمرد ثورة عرابي .

وأخفقت الثورة وأعقبها الاحتلال البريطاني ولكن الضمير الوطني بقي حيّاً يقظاً يملي على الألسنة والأقلام معاني الجهاد والكفاح في سبيل الحرية والاستقلال والتخلص من الاحتلال . ولقد صرّحت إنجلترا غير مرة عقب تدخلها في شؤون مصر ونجاح حملتها فيها أنها راغبة في الجلاء عن الديار المصرية فقال «جلادستون» و «جرنفيل» إنهما لا ينويان تحميل بريطانيا أعباء نفقات جيش بمصر و « جرنفيل » هذا هو الذي أرسل إلى « بسمرك » يقول : « إن ذلك يكلفنا كثيراً جداً فضلا عن أنه يضطرنا إلى إنشاء تحصينات من الطراز الأول » وها قد مضى على هذا التصريح نحو من سبعين عاماً ولم تجلُ إنجلترا جلاءً تامّاً عن أرض الكنانة (١) .

وكانت الحال بسورية ولبنان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على شيء من الهدوء والاستقرار ولكن على جانب كبير من الضنك والضيق

---

(١) هناك كتب كثيرة في تاريخ مصر الحديث فإن شئت أن تقف على آراء بعض المؤرخين الغربيين في ذلك التاريخ فطالع كتاب :

Gabriel Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne.

وكتاب Précis de l'Histoire d'Egypte, par *Divers Historiens & Archéologues*, Tome IV.

وإذا عدنا القهقرى إلى السنوات العشر التي سبقت منتصف القرن وإلى السنوات العشر التي تلته وجدنا لبنان ساحة دامية للثورة الأهلية بين الدروز والنصارى فقد أوغر رجال الدولة التركية صدور الدروز وأثاروا حفائظهم فخفّوا في سنة ١٨٤١ إلى السلاح يعملونه في رقاب إخوانهم النصارى ثم أعادوا الكرة في سنة ١٨٤٥ ثم استأنفوها في سنة ١٨٦٠ وبعثوها في هذه المرة فتنة عمياء طاحنة امتدّ لهبها إلى سورية وأسفرت عن نظام جديد بلبنان هو نظام المتصرفية فرضته الدول الغربية عليه فلقي في ظله بعض الأمن والعافية. ولكنه لم ينج من عنجهية المتصرفين الأتراك ولا من فساد بعض هؤلاء المتصرفين وجشعهم في جمع المال من أي سبيل كان[١].

وانكمش لبنان في حدوده الضيّقة على عهد المتصرفية فلا سهل ولا ثغر إلا القمم الجرد والصخر الجديب فكان على أهله أن يستنبتوا الحجر الصلد والأرض القاحلة فما تمنّعا مع ذلك على عزائمهم وهممهم.

وكان من أثر الحرب الأهلية في سنة ١٨٦٠ ومن أثر الضيق الذي جثم على صدر الجبل أن نزح كثير من السكان إلى المدن والسواحل ثم إلى بلاد الله الواسعة يلتمسون فيها الرزق الحلال بشقّ النفس وعرق الجبين وجهد الفكر.

وليست هجرة السوريين واللبنانيين بالأمر الطارئ عليهم عقب ثورة الدروز فإنما سنّوا لأنفسهم الهجرة وأقبلوا عليها منذ عهد الاحتلال العثماني فقد نفّرتهم مظالم ذلك العهد وفرّقتهم أيدي سبا[٢] في أنحاء المعمورة وإنهم

---

(١) من هؤلاء المتصرفين الذين جنحوا إلى الرشوة والفساد متصرف اسمه «واصا باشا» وفيه يقول تامر الملاط راثياً مؤبناً معرضاً:

قالوا قضى «واصا» وواراه الثرى   فأجبتهم وأنا الخبير بذاته
رنوا الفلوس على بلاط ضريحه   وأنا الكفيل لكم برد حياته

ولقد اشتهر هذان البيتان بين الخاصة والعامة شهرة غريبة حتى اتفق أن مكاريين كانا عائدين مرة من بيروت ووقفا يتحاسبان في الحازمية حيث ضريح «واصا» فسقطت قطعة من الدراهم ورنت فقال أحدهما للآخر ممازحاً: احذر أن يستمع «واصا» فيقوم من قبره. (ديوان الملاط الطبعة الأولى).

(٢) سبأ: حي من اليمن تفرق أهله على أثر السيول التي غمرتهم من تهدم السد الذي كانوا يحجزون به الماء ويقال للمتفرقين: ذهبوا أيدي سبأ وأيادي سبأ. قال ذو الرمة:

فيا لك من دار تحمل أهلها   أيادي سبا بعدي وطال اجتنابها

لقوم يجري في عروقهم حب الأسفار والمغامرة وركوب البحر وحب الاتجار مع القصيّ النائي من الأقطار. فالشاميّ رجل ولوع بالحرية والاستقلال صبور على المكاره معتدّ بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد بالنفس واثق بما حباه الله به من ذكاء وثبات وجلد فإن ضاق به الرزق في وطنه طلبه في أبعد الأوطان فعبقريته وعزيمته كفيلتان بأن توفّرا له ذلك الرزق ولو كان في جبهة الليث أو في قبة الفلك(١) وإذا مسّه الضر والأذى في بلده هجره إلى البلد الذي يعيش فيه حرًّا آمناً مطمئناً.

ومن الطبيعي أن يكون وادي النيل هو المهجر القريب الذي تطلعت إليه قلوب الشاميين فالجوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأدباء الأحرار إلى الفرار من ربقة الرقيب العثماني وإطلاق أقلامهم في الوادي المكفولة فيه حرية الأقلام كما أهابت بأهل السعي إلى النزوح عن الجبل القاسي إلى السهل الخصيب حيث السعة والأمن والرخاء(٢).

والنازحون إلى مصر من حملة الأقلام في الربع الأخير من القرن التاسع عشر لقوا في مصر أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان فشاركوا المصريين في الحياة العامة وصهرتهم البوتقة المصرية فعاشوا أوفياء لمصر يحسّون بإحساسها وتخالج قلوبهم آلامها وآمالها وكان لهم في الصحافة والأدب شأن جليل وقفوا فيه أقلامهم على خدمة مصر والمصريين(٣).

٢ ـ البيئة الاجتماعية

تطلع المصريون إلى الغرب من زاوية السياسة فوقعت أبصارهم فيه على المعاني الجديدة لحرية الشعوب وحقوق الإنسان ونظام الحكم وتطلعوا إليه من أفق

---

(١) إشارة إلى العزة والمنعة كما قال الشاعر العربي القديم:

ليت الملاح وليت الراح قد جعلا ... في جبهة الليث أو في قبة الفلك
كيلا يقبل ذا ثغر سوى ملك ... ولا يطوف بحانات سوى ملك

(٢) اقرأ كتاب «السوريون في مصر» للخوري بولس قرألي. وكتاب «مصر والشام في الغابر والحاضر» للدكتور أسعد طلس.

(٣) ذلك كان ولا يزال مذهب جميع الشاميين النازلين بضفاف هذا الوادي الأمين فإن كان شذ عنه نفر قليل فلا حجة في الشواذ.

الاجتماع فاسترعت انتباههم حضارته المتألقة وعاداته البرّاقة فاندفعوا يقتبسون من أنوار مدنية جديدة عليهم استحوذت على ألبابهم وأفكارهم فأغفلوا الملابس الشرقية واستبدلوا بها الملابس الإفرنجية وانصرفوا في فن البناء عن الأطرزة العربية الجميلة التي كانت متعة النواظر في القصور والدور إلى احتذاء الهندسة الأوربية التي توفّر لهم أنظمتها أسباب الراحة ومال الشبان في أوقات فراغهم عن الجمود والقعود إلى الألعاب الرياضية يزاولونها ويقضون فيها الساعات الطوال وتسرّبت عادات المجتمع الأوربي إلى عادات الأسرة الشرقية في الأطعمة والمآدب والأزياء وتخلّق القوم بالأخلاق الغربية في أحاديثهم وندواتهم وعكفوا على اللغات الأجنبية يتحدثون بها أو يمزجون طرفاً منها باللغة العربية تأنقاً وتظرفاً(١) وخرجت المرأة كذلك عن العادات الشرقية المأثورة وتراخى حبل المحافظة على العادات والسجايا العربية واندفع الناس على الجملة إلى التشبه بالحياة الغربية يأخذون منها الغثّ والسمين والصالح والطالح مفتتنين بالجديد متطبعين بطبائع يأباها الخلق العربي المحافظ فغرقت البلاد في موجة من التفرنج امتدت إلى أصول الأخلاق فعصفت بها حتى أصبحت المضاربة بالمال والمقامرة عادة مستحكمة في النفوس وأصبحت الرشوة والمحاباة داء ينفث سمّه في شرايين المجتمع وحتى كاد التأنق عند بعض الشبان ينقلب إلى لوثة من الرقاعة والفساد فأفاق العقلاء من غفوتهم وهبّوا يدرؤون عن الوطن وأبنائه وبناته هذا الوباء الجارف الذي نقلته إليهم ريح الحضارة الغربية وأسهمت الصحافة في هذا الواجب الخلقي الوطني إسهاماً كبيراً وقام الشعراء والأدباء ينددون بتهالك الشباب على المفاسد ومن هؤلاء الشعراء والأدباء كان نجيب الحداد فله مقالات وقصائد في هذا الباب نشير في هذا المقام منها إلى قصيدته التي ينتقد فيها التفرنج الكاذب ومطلعها :

بأبيك قل لي يا فتى العصر ماذا تركت لربة الخدر

ومن الظواهر الاجتماعية في هذه الحقبة من القرن التاسع عشر مناداة الأقلام بتحرير المرأة فقد بدأ صريرها في هذا الموضوع الخطير ضعيفاً خافتاً ثم علا

---

(١) انظر في هذا كتاب :
Précis de l'Histoire d'Egypte, par *Divers Historiens* & *Archéologues*.

دواليك حتى نهض قاسم أمين[١] بالدعوة لتحرير المرأة فانقسم الناس بين مؤيّد ومفنّد وكان جمهرة الفضلاء يرون رأيه ولا يجاهرون به فكان هو أشجعهم في إعلان رأيه صريحاً واضحاً والوقوف دونه مجاهداً مدافعاً .

على أن المناداة بتحرير المرأة لن يكون لها الصدى المرجوّ إذا لم يكن هناك مدارس تحرّرها أولا من ربقة الجهل وتنقلها إلى مراتع العلم والمعارف فأول مدرسة للبنات كانت قد أنشئت بالقاهرة في سنة ١٨٧٣ ولولا مدارس البعثات الأوربية من مثل مدرسة راهبات الراعي الصالح بشبرا (أنشئت سنة ١٨٤٤) ومدرسة راهبات القديس منصور في حي المسكي (أنشئت سنة ١٨٤٥) ثم في شبرا . ومدرسة الرسالة الفرنسسكانية الإيطالية في كلوت بك بالقاهرة (أنشئت سنة ١٨٥٩) ثم بالمنصورة وكفر الزيات والإسمعيلية لولا هذه المدارس الأجنبية للبنات وقد نهضت وحدها في أول الأمر تضطلع بعبء تهذيب الفتاة وتثقيفها وهي من القلة بحيث لا تفي بحاجات أمة كالأمة المصرية لما كان للفتاة المصرية أي معهد تتحرر فيه من الجهل وتستقبل الحياة على شيء من العلم والدراية والمعرفة فوجود هذه المدارس وعناية بعض الأسر بتهذيب بناتها في جوّ خاص كان النواة لنهضة المرأة المصرية مجسّمةً في عائشة التيمورية الأديبة الشاعرة التي تلقت النحو والعروض على فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية[٢] فدعوة تحرير المرأة كانت دعوة لازمة واجبة ما لبثت على مرور الزمن أن ارتفع صوتها فوق أصوات المعارضين ونعمت البلاد بخيراتها على النحو الذي نراه اليوم في منتصف القرن العشرين .

ولئن عددنا التمثيل جانباً من جوانب البيئة الاجتماعية وجدنا التمثيل العربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر قد بدأ يستقيم له كيان في مصر وتفتح له في بعض الأحيان أبواب دار « الأوبرا » ويعنى به الحكام والولاة وتتألف فيه الأجواق كجوق يوسف خياط وسليمان القرداحي ومن أعضاء جوقه الشيخ سلامة حجازي وكجوق أبي خليل القباني وإسكندر فرح ومال إليه الكتّاب

---

(١) انظر ترجمته في « تراجم مشاهير الشرق » ج ١ ص ٣٠٠

(٢) انظر « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان ج ٤ ص ٢١٤ (الطبعة الثانية)

يغذونه بالمسرحيات المترجمة « وأشهر هؤلاء الكتّاب الشيخ نجيب الحداد وأشهر ما كان يمثّل على المراسح المصرية من تأليفه أو تعريبه حتى جرى كثير من أشعارها وأناشيدها على الألسنة مجرى الأمثال[١] » .

كذلك كان للموسيقى والغناء شأنهما الرفيع في ذلك العهد فكان معظم الروايات التي تمثّل على المسارح يتخللها الغناء اجتذاباً للجمهور الذي يميل إلى سماع الغناء ويطرب له وكان الموسيقيون والمغنّون يجوّدون صناعتهم ويقتبسون من تركيا الأصوات والأنغام التي تلائم الذوق العربي وتهزّ أسماع العرب وأفئدتهم.

٣ ـ النشاط الثقافى

كان النشاط الثقافي في الحقبة التي تعنينا من القرن التاسع عشر ظاهر الأثر وضّاح الغرر فقد أزهرت فيها غراس الحملة الفرنسية وأينعت ثمار البعثات العلمية التي نهلت من ينابيع الغرب وقام الأزهر بنصيبه من البعث والانطلاق والتجدد بعد الفتوى التي أصدرها الشيخ محمد الإنبابي شيخ الجامع الأزهر وأمّن عليها الشيخ محمد البنا مفتي الديار المصرية بجواز « تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبّر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف » وبعد روح الإصلاح التي بثّها محمد عبده في الأزهر واستهدى بها نفر من تلاميذه . ولقد كانت تلك الحقبة آهلة بالعلماء والأدباء والشعراء يدور إنتاجهم إلا أقلهم في فلك القديم ومحاكاته . على أن طابع تلك الحقبة إنما يتجلى في أمرين اثنين هما انتشار الصحافة وترجمة الروايات .

شهدت مصر في سنة ١٨٦٥ ميلاد أول صحيفة مصرية بعد صحيفة « التنبيه » على عهد الفرنسيين وبعد « الوقائع المصرية » تلك هي مجلة « اليعسوب » الشهرية لمنشئيها محمد علي باشا الحكيم وإبرهيم الدسوقي ومنذ ذلك التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر زخرت مصر بالصحف والمجلات السياسية والأدبية أنشأها

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان ج ٤ ص ١٣٣ (الطبعة الثانية) .

المصريون أو أصدرها الشاميون الذين هرعوا إلى وادي النيل واتخذوه ميداناً لسوابق أقلامهم(١) .

فجال هؤلاء وأولئك في السياسة والأدب وأنشأوا فن المقال الصحفي وكان للشاميين أثرهم « وفضلهم على الصحافة الشعبية المصرية »(٢) .

أما الترجمة فيبدأ كذلك عهدها المنظم في زمن الحملة الفرنسية فالمنشور الذي أمر بونابرت بتوزيعه على أهل الإسكندرية قد ترجمه « ڤنتور » وطبعه المستشرق « حنا يوسف مرسيل » مدير مطبعة الحملة وقام بهذا العمل على ظهر الباخرة « لوريان »(٣) ثم تتسع دوائر الترجمة في مصر طوال العقود الثمانية من القرن التاسع عشر يقوم بها مستشرقون وشرقيون يديرونها في نقل الكتب العلمية والأدبية أو المحاضرات ويستخدمونها في الأعمال الحكومية حتى كان الربع الأخير من ذلك القرن فجدّ جدّها واتسعت دائرتها أيّما اتساع وتناولت مختلف الفنون والشؤون ودارت اللغات الأجنبية على الألسنة وشجّعت الحكومة الترجمة والمترجمين ونهض بها غير واحد من الأدباء ممن لم يعوّلوا في نشر كتبهم المترجمة ورواجها إلا على الشعب فكسب العصر زاداً طيباً من المعارف ما بين علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية وأدبية وظفرت المكتبة العربية بنفائس من كتب الغرب .

غير أن العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر قد تميزا بترجمة القصص والروايات التمثيلية . ولما كان فن التمثيل العربي بمصر شاميّ الأرومة فقد مهره

---

(١) نذكر من صحف المصريين : « وادي النيل » أنشأها أبو السعود أفندي سنة ١٨٦٦ و«نزهة الأفكار» الأسبوعية لإبرهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال صدرت سنة ١٨٦٩ ولكن لم تعش غير أسبوعين و « روضة المدارس » صدرت سنة ١٨٧٠ وكتب فيها كثير من الأدباء والعلماء و«الوطن» لميخائيل عبد السيد أنشئت سنة ١٨٧٧ و « المؤيد » للشيخ على يوسف و« الأستاذ » لعبدالله نديم أصدرها سنه ١٨٩٢

ونذكر من صحف الشاميين : « الكوكب الشرقي » لسليم باشا حموي (١٨٧٣) و « الأهرام » لسليم وبشارة تقلا (١٨٧٥) و« المقطم » لصروف ونمر ومكاريوس (١٨٨٨) إلى كثير غيرها ما بين يومية وأسبوعية وشهرية من مثل « المقتطف » و« الهلال » و« اللطائف » و« لسان العرب » و« البيان » و « أنيس الجليس » . . .

(٢) « أدب المقالة الصحفية في مصر » لعبد اللطيف حمزه ج ١ ص ٢٧

(٣) « حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر » لجاك تاجر ص ٤

الأدباء السوريون واللبنانيون بطائفة صالحة من الروايات التمثيلية نقلوها من اللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية ثم شرعوا يعالجون التأليف فحذا حذوهم المصريون ترجمة وتأليفاً أو اقتباساً وتمصيراً كرواية « ترتوف » نقلها عثمان جلال وسبكها في قالب مصري وسمّاها « الشيخ متلوف ».ولم ينحصر نشاط المترجمين في الروايات التمثيلية بل تعدّاه إلى مختلف ضروب القصص فلقيت هذه من الجمهور إقبالا كبيراً وتسرّبت المعاني والأساليب الإفرنجية إلى الأدب العربي شعره ونثره على أسنّة أقلام المترجمين يبرزها الضعيف منهم في ثوب ركيك مهلهل ويجلوها القويّ الكفيّ في برود قشب من الدّيباجة العربية .

ويتمم صورة ذلك النشاط الثقافي في تلك الحقبة توافر المحافل والأندية والأبهاء الأدبية وقيام الجماعات العلمية والأدبية(١) وتوفّر المطبعة الأميرية والمطابع الأهلية على إخراج نفائس الكتب العربية ثم ارتياد الناس للمكتبات العامة(٢) ينهلون من معينها وترددهم على المتاحف(٣) يرهفون بذلك أذواقهم ويصقلون ملكاتهم وازدياد عدد المتعلمين ممن يتخرجون في المدارس المصرية أو المدارس الأجنبية بمصر أوممن يشدّون الرحال إلى بيروت ليتلقوا العلم في الكلية الأمريكية(٤) أو كلية الآباء اليسوعيين(٥) أو في غيرهما من المدارس الوطنية هناك(٦) .

---

(١) من مثل « الجمعية الجغرافية » (١٨٧٥) و « جمعية المعارف »(١٨٦٨) و « الجمعية الخيرية الإسلامية » (١٨٧٨)

(٢) دار الكتب (١٨٧٠) والمكتبة الأزهرية (١٨٧٩) و « المكتبة البلدية بالإسكندرية » (١٨٩٢)

(٣) « المتحف المصري» (١٨٦٣) و « متحف الفن العربي » (١٨٧٠)

(٤) كانت أول عهدها مدرسة في قرية « عبية » بلبنان أنشئت سنة ١٨٤٧ ثم حولت إلى كلية ونقلت إلى بيروت في سنة ١٨٦٦

(٥) أنشئت أولا في « غزير » بلبنان ثم نقلت إلى بيروت في سنة ١٨٧٤

(٦) « كالمدرسة البطريركية للروم الكاثوليك » (١٨٦٥) و « مدرسة الحكمة » للموارنة (١٨٦٥) و « مدرسة الثلاثة الأقمار » للروم الأرثوذكسيين نقلت من « سوق الغرب » إلى بيروت في سنة ١٨٦٦

الفصل الثاني

نجيب الحدّاد في عصره

١ ـ لقب الشيخ والحداد

نجيب الحداد هو ابن سليمان الحداد وحنة اليازجي ابنة الشيخ ناصيف اليازجي العلامة المشهور . وأهل أسرة الحداد من حوران وأفرادها هم من بني لطيف وغلب عليهم لقب « الحداد » بدلا من « لطيف » في عهد نجم الحداد جد سليمان فقد كان يعمل بتعدين الحديد للأمير بشير الشهابي الكبير حاكم لبنان فحظي عنده ونال مرتبة رفيعة فاستمر هو ونسله من بعده يلقبون بالحداد .

ولما قدم سليمان الحداد إلى الإسكندرية بدعوة من البطريرك «غوريغوريوس يوسف» أكرم وفادته وأقامه شيخاً على طائفة الروم الكاثوليك فلقب بالشيخ وورث أبناؤه منه اللقب[١] .

أما لقب « الشيخ » المعروفة به الأسرة اليازجية فينحدر إليها من «سعد اليازجي» صاحب المنزلة السامية لدى الأمير أحمد المعني آخر حاكم للبنان من المعنيين فقد كتب له لأن أسلافه في حمص كانوا كتّاب الولاة ومدبّريهم فأصاب سعد من الأمير المعني حظوة ومكانة فكتب إليه لقب « الشيخ » لوجاهته وعلمه ولزمهم هذا اللقب بعد ذلك[٢] .

٢ ـ حياة نجيب الحداد

ولد ببيروت في الخامس والعشرين من شهر فبراير[٣] (شباط) سنة ١٨٦٧

---

(١) « الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ص ٨

(٢) « الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ١ ص ٦

(٣) « الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ص ١٥-٢٦

فأرخ ولادته خاله حجة اللغة الشيخ إبرهيم اليازجي بقوله :

تجلى هلال السعد في حسن طلعة بها الله وافانا بحسن وإحسان
نجيب نراه حيث أرّخ فائقاً ولا غرو فيه إنه من « سليمان »

وفي سنة ١٨٧٣ انتقلت أسرته إلى الإسكندرية فانتظم في سلك مدرسة الإخوة (الفرير) وبقي فيها سنتين ثم تركها إلى المدرسة الأمريكية وبدت عليه في كلتيهما مخايل النجابة والنبوغ والذكاء ولما اندلعت نيران الثورة العرابية في سنة ١٨٨٢ عاد مع أسرته إلى بيروت وأكمل علومه في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك وتلقى آداب اللغة العربية وفنونها على خاليه الشيخين خليل وإبرهيم اليازجي فبلغ منها في زمن قصير مبلغاً عظيما دل على أنه من تلك النبعة اليازجية .

وفي سنة ١٨٨٣ عيّن أستاذاً للغتين العربية والفرنسية في مدرسة بعلبك وما إن يقضي فيها عاماً واحداً حتى يعود إلى الإسكندرية ملبياً دعوة سليم تقلا صاحب جريدة الأهرام فانضمّ إلى كتّابها واستمرّ يكتب فيها مؤلفاً مترجماً زهاء تسع سنوات[1] . وفي سنة ١٨٩٤ أنشأ هو وشقيقه الشيخ أمين الحداد

---

(١) ورد في « تراجم مشاهير الشرق » لجرجي زيدان أن المترجم له « جاء الإسكندرية بعد الحوادث العرابية فتولى التحرير في جريدة الأهرام إلى عام ١٨٩٤ » وورد في « الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ما يلي :

« وفي سنة ١٨٨٤ استقدم إلى الإسكندرية لتحرير جريدة الأهرام لسليم بك تقلا وبقي فيها تسع سنوات إلى سنة ١٨٩٤ » وورد في مقال طانيوس عبده المنشور في ذيل ديوان نجيب الحداد : « ثم استدعي إلى جريدة الأهرام للمساعدة في تحريرها فكتب فيها عشر سنوات . » وقال حنا سركيس في ترجمته لنجيب الحداد المنشورة في المجلد الأول من مجلة « الضياء » : « حتى استدعته جريدة الأهرام بالإسكندرية ليكون من منشئيها وهو في الخامسة عشرة كما أسلفنا فبقي المنشىء الأول فيها مدة اثنتي عشرة سنة بلا انقطاع ثم فارقها وأنشأ جريدة لسان العرب . » أما كتاب « جريدة الأهرام » للدكتور إبرهيم عبده فيقول : « ثم جاء في نبأ آخر أن نجيب الحداد قد انتظم في هيئة تحرير الأهرام » ويحيل في الهامش إلى « الأهرام في ٢ نوفمبر ١٨٩٣ » مع أن الدكتور إبرهيم عبده عندما يتكلم في كتابه على نصيب جريدة الأهرام من الدعوة لحقوق المرأة بأقلام «مصاحفي» الجريدة أو محرريها يشير إلى مقال في هذا الموضوع نشر لنجيب الحداد في الأهرام بتاريخ ٢٨ من أبريل سنة ١٨٩٣ هذا والأهرام في السنوات العشر أو التسع السابقة لانتظام الحداد في هيئة تحريرها على ما تشير إليه مملوءة بآثاره ، فهل يفهم من هذا كله أنه كان يكاتبها وأنه إنما انتظمته هيئة تحريرها في الثاني من نوفمبر سنة ١٨٩٣

وعبده بدران جريدة « لسان العرب » اليومية وكان هو رئيس تحريرها فقضت حال الصحافة بوقف الجريدة فجاء إلى القاهرة وأصدرها مجلة أسبوعية أدبية اجتماعية .

ثم حنّ ثانيةً إلى الإسكندرية فنقل إليها «لسان العرب» وأنشأ هو وغالب طليمات جريدة « السلام » اليومية السياسية وتولى الكتابة في مجلة « أنيس الجليس» لصاحبتها الأميرة ألسكندرا أڤرينو وهي مجلة شهرية علمية فكاهية نسائية أنشئت في أوائل سنة ١٨٩٨[١] فكان يكتب في هذه الصحف كلها وكان إلى هذا لا ينقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات الأخرى ولا عن التأليف والترجمة ونظم الشعر حتى أضناه العمل والكفاح فأصيب بذات الرئة فلم يمهله الداء طويلا فعادت نفسه إلى بارئها وخبا ذلك الشعاع الساطع في اليوم التاسع من شهر فبراير (شباط) سنة ١٨٩٩ وليس لصاحبه من العمر غير اثنين وثلاثين ربيعاً فنعته الصحف في حزن وحسرة وأقيم له مأتم حافل بكاه فيه الأدباء والشعراء ولعلّ أصدق مايصوّر حياته الكادحة الجاهدة هو مطلع مرثية خليل مطران حيث يقول :

---

(١) « عاشت "مجلة أنيس الجليس" عشرة أعوام ونالت من الصيت البعيد ما لم تنله مجلة نسائية سواها قبل ذلك العهد وحسبنا برهان على ذلك أنها كانت تقرأ في قصور السلاطين والملوك والأمراء والأعيان في جميع البلاد الشرقية ولذلك فإن منشئتها السيدة ألكسندرا أڤرينو أحرزت جاهاً كبيراً وذكراً مستطاباً في عالم الصحافة والأدب ... وأحرزت كذلك مكانة رفيعة لدى الملوك والسلاطين . ففي عام ١٩٠١ منحها مظفر الدين شاه إيران لقب "كوكب الشرق" وأنشأ لأجلها وساماً خاصاً بالنساء أتحفها به مع رسمه موقعاً بخطه وفي تموز ١٩٠٣ شهدت حفلة السلاملك الهمايوني بالآستانة فأنعم عليها السلطان عبد الحميد بوسام الشفقة من الدرجة الأولى وهو مرصع بالحجارة الكريمة . ولما التأمت جمعية " السلم العام " سنة ١٩٠٠ في باريس انتدبت ألكسندرا لتمثيل سيدات مصر فيها . فأنشأت حينئذ لمصر راية سلام مخصوصة جعلتها تخفق بين رايات سائر الدول وكانت الأميرة فيز ينوسكا الإيطالية رئيسة تلك الجمعية فتعرفت ألكسندرا إليها وحظيت بصداقتها وثقتها ولم يكن للأميرة فيز ينوسكا أولاد يرثون عنها لقبها الشريف فأعلنت في وصيتها الأخيرة عن رغبتها في أن ينتقل لقب الإمارة بعد وفاتها إلى السيدة ألكسندرا مع الحق بتسلسل هذا النعت الشريف في ذريتها من بعدها ... وللأميرة صاحبة " أنيس الجليس " مآثر أدبية شتى فإنها عربت رواية " شقاء الأمهات " ونظمت القصائد البديعة في مواضيع مختلفة . وطبعت ديوان الشيخ نجيب الحداد ومراثيه اعترافاً بفضله على مجلتها التي كان هو وأخوه الشيخ أمين يحرران فيها . وطبعت على نفقتها ديوان " شعر النحلة " فقرظها ناظمه الدكتور لريس صابونجي . . . »

(« تاريخ الصحافة العربية » للفيكنت فيليب دي طرازي ج ٤ ص ٣٢٦ و ٣٢٧)

اربأ بنفسك أن تكون نجيبـــا	وازجر خليلك أن يكون أديبا
فلقد أرى موت الأديب حياته	والعيش موتاً يلتقيـــه ضروبا

وأرّخ وفاته على عادة العصر كثير من الشعراء كان منهم خاله الشيخ إبرهيم اليازجي وهو الذي كان قد أرّخ ميلاده فقال في تأريخ وفاته أبياتاً ختمها بهذا البيت :

فصغت بيتـــاً من التاريخ قلت به	قد مات بعد (النجيب) الشعر والأدب(١)

٣ ـ صورته الجسمانية والنفسية

صوّرها لنا طانيوس عبده صديقه الحميم فقال : « أما صفاته فهو ربعة القامة حنطيّ اللون كثير التصور حادّ الذهن سمح البديهة حتى إنه قد يرتجل القصيدة الطويلة على نَفَس لا يقطعه وإذا اقترحت عليه الكتابة في موضوع فهو يسبق جنانه اللسان ويعدو قلمه البنان وهو طاهر القلب عفّ الضمير مهذّب الأخلاق لطيف المحاضرة فصيح الكلام فإذا تكلم أنصتت إليه الأسماع وشربت حديثه العذب كل الطباع » .

ذلك كلام خدنٍ له وصديق عرفه عن كثَب فقدّمه إلينا ورسم له هذه الصورة ولا يصعب على من يلتمس له الصورة النفسية في آثاره الأدبية ما بين شعر ونثر أن يؤمّن على هذا الكلام ويجد فيه مصداق ما يرسمه الذهن في لوح الخيال من صورة ذلك العبقريّ ولكنه يجد مع ذلك في الصورة المرسومة بقلم صديقه بعض جوانب ناقصة لعله شاء أن يتركها للمؤرخين والباحثين من بعده .

ونحن إذا شئنا أن نستكمل الصورة النفسية لنجيب الحداد قلنا إن الرجل كان رقيق القلب إلى أبعد حدود الرقّة وكان صاحب نفس متألمة معذبة . فرقّةُ

(١) تجد ترجمة نجيب الحداد في مصادر عدة أهمها : « الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ و « تراجم مشاهير الشرق » لجرجي زيدان ج ٢ و « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو و « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود . ومقال لطانيوس عبده منشور في ذيل ديوان الحداد ومقال آخر لحنا سركيس منشو في المجلد الأول من مجلة « الضياء » وفي ذيل ديوان الحداد .

قلبه تتمثل في إنسانيته وتسيل على شباة قلمه سيولاً من ذوب الفؤاد فإذا قرأته مال قلبك إليه وأحببته وانعقدت بين قلبك وقلبه الحيّ النابض مودّة أواصرُها من نسج السماء ولا عجب فرقّة الحواشي تأسر أقسى القلوب فما بالك إذا سرت في حنايا الشعر الرقيق إنها تكون عندئذ السحر الذي لا يدفع ولا يقاوم.

وعذاب نفسه كذلك واضح بيّن وليس عذابه منبعثاً من شكّ يساوره في أمر الروح والمعاد فالرجل موحّد مؤمن مسلم بما أنزله الله من ألواح وشرائع فهو في هذا صاحب نفس مطمئنة مهدية تؤمن بالله وباليوم الآخر أفيكون إذن عذاب نفسه ناشئاً من حبيب هاجر أو صديق غادر أو عمل خاسر أو ما شاكل ذلك مما تزخر به الحياة ويميّز البشر. كلا. فإن عزيمة الرجل وذكاءه ومعرفته بطبائع الناس كفيلة أن تلطف من نفسه جرح الخيبة والإخفاق وأن تخفف عليها وقع الهجر والغدر ففيمَ إذن عذاب نفسه. إننا لنلمسه في الصيحة الخافتة والزفرة المكبوتة تريد أن تنبعث وتنطلق مدوّية متفجرة ولكن يكتمها ويضبطها ذلك المعدن من النفس السامية التي تستعلي على البوح والإفصاح فيحملها الوعي الباطن إلى دنيا الناس مبثوثة على صفحات معانيه وخواطره كلما وجدت السبيل إلى أن تشقّ آية الحجاب وتبرز لبصائر الناس.

كان عمر نجيب الحداد قصيراً قصرَ عمر الورد والريحان ولكنه ملأه مع ذلك بجلائل الأعمال وحوافل الهمم وكانت نفسه تشعر في مراحل حياتها أنها ستحيا غريبة معذبة في هذا الوادي وادي الدموع وأنها ستحمل فيه ما تنوء بحمله رواسي الجبال فتزفر زفرتها الأولى في صباح العمر وتقول:

سأقدم ما أبقى ليَ الدهر همةً — وأركب في متنيه كل ركوب
لعل اجتهاد النفس يعقب راحةً — فتسكن أو يأتي لها بكروب (١)

وتزفر عند غروب العمر الزفرة الأخيرة مودّعة حزينة مصوّرة ذلك العذاب الذي طعمته وتغذّت به في الحياة فتقول:

إن قلباً معذّباً نثرتهُ — أسهم الدهر كيف ينظم شعرا
لم تبقّ ليَ المصائب إلا — قلما كسرُهُ أحقّ وأحرى

---

(١) كأنه كان على مذهب امرئ القيس القائل: «نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا».

كنت أرجوه للخطوب فأضحى لي أمضى سهامها حين يبرى
وغدا حبره يخطّ سطوراً تجتليها عيني دماءً حُمرا
ما يرجّيه كاتب من يراع لم يكن في الذي يرجّيه حرّا

ويخيّل إلينا أن هذا البيت الأخير هو صورة حياته كلها وسرّ عذابه كله. لم يكن في الذي يرجّيه حرًّا مع أنه كان حرّاً في عقيدته ومذهبه ومبادئه حرًّا في الأمثلة العليا التي وقف نفسه للذود عنها وتمهيد سبل الناس إليها فأين إذن الأغلال والقيود التي كبّلته وعاش تحزّ في نفسه ويتنزّى في قضبانها.

أدرك نجيب الحداد أن الله خصّه بنعمة سماوية هي ملكة الشعر وموهبة البيان وأدرك بثاقب فكره وساطع ذكائه وهو بعدُ في شرخ الشباب أن الحياة ستضع العقبات في سبيل ملكاته وحريّتها فتألم ثم قضى العمر متعثّراً بتلك العراقيل فتعذّب وكان كلما أراد أن يحلّق بموهبته المجنّحة شدّته إلى الأرض أثقال العيش وأوقار[١] السعي في الرزق فخضع وأذعن على ألم ومضض وذهبت نفسه حسرات.

أوليس من عذاب النفس أن يعتمد الشاعر قيثارته ليهزج ويتغنّى ويخاطب سكان السماء ويحلّق في جواء السحر والفتنة وفضاء الوحي والإلهام فتحول دونه مطالب الأرض فيجيبها صاغراً عن يد[٢].

(١) الأوقار: جمع وقر (بكسر الواو): الحمل الثقيل.

(٢) ومثل هذا العذاب النفساني لقيه أيضاً أخوه الشيخ أمين الحداد فقد جاء في مذكراته:
« أنا الآن في نحو السابعة والثلاثين من عمري وصناعتي الإنشاء والتحرير في جريدة "البصير" ومجلة "أنيس الجليس" ولكني أكتب في كلتيهما بدون توقيع وإنني شاعر أيضاً والشاعر ضنين بمجده مفتون بكلامه ولكني مع كل هذا أتعمد ذلك الخلق بالتساهل فلا أوقع على نظمي بل أهبه لسواي كثيراً ولو كان جيداً أشرف به وإنما أفعل هذا في مجلة "أنيس الجليس" خاصة لأن صاحبتها هي ألكسندرا أفرينو وهي امرأة بارعة الجمال ولكن ليس لجمالها سلطان علي بالإطلاق بل أهبها ذلك في نظير ما تهبه من أجرة وفي نظير ما ينبغي من الرجل للمرأة. أما دل سلطانها لدي فلشدة ائتلافي بها إلى حد الأخوة ولكوني في شغل شاغل عن الحسن من خلقي ومن همومي ونيلي في دنياي أقل من استحقاقي » (منتخبات أمين الحداد ص ٤)

وأمن على هذا صديقه حنا سركيس إذ قال:

« . . . فقد ذكر عند كلامه عن "أنيس الجليس" أنه كان يكتب في نظير الأجرة التي كان يتناولها وهو قول وإن كان صحيحاً ولكن الأصح منه أن وفاءه الشديد لصاحبة الأنيس وبقاءه على خدمتها إلى آخر أيامه إنما كان من قبيل الاعتراف بالجميل الذي صنعته مع أخيه نجيب أيام اعتلاله وموته » (منتخبات أمين الحداد المقدمة ص ع)

وهكذا شغل نجيب الحداد حياته بصفحات يسوّدها فراراً من عيشه الأسود وبموضوعات تقترح عليه فيلبّيها سماحة وكرماً وبواجبات اجتماعية يقسر عليها فيكون عند حسن الطمع فيه والرجاء وهو لو عاش لموهبته وفنه وخصّ بهما فراغه ولا نقول وقته لغرّد وجاء بالمعجزات .

على أنه مع أصفاده وأغلاله قد أنشد وغرّد وترك لنا هذا التراث القليل الجميل الذي سيبقى في الصالحات الباقيات ولكن أي جريمة ارتكبها القدر في إرهاقه بتكاليف الحياة وتأليب الأدواء عليه حتى ختم الله على عذابه فانطلق إلى حيث يشبع نفسه تسبيحاً وتغريداً .

٤ ـ تأثره وتأثيره

الإنسان كالحيوان ابن الوراثة والبيئة فالوراثة تزوّده ببعض الخصال والطبائع والشيم وتعدّه لجوانب معيّنة في الحياة وتقوده إلى ميادين خاصة من النشاط والسلوك كما أن التربية والبيئة تنميان فيه الملكات الموروثة وتساعدانه كذلك على اكتساب خلائق جديدة فقوى الإنسان الذهنية إذن موهوبة ومكسوبة والسعيد من الناس من جمع الخلّتين(١) .

فالوراثة تتحكم في الخَلق والخُلق وتفرض إرادتها على أجيال الناس فيخضعون لناموسها وليس لهم منه في الأعم الأغلب مناص ولا فرار . . .

والوراثة الجسمانية هي التي تضرب أبناء الأسرة الواحدة على قالب واحد فيتشابهون سمات وقسمات في القبح والجمال .

ووراثة الغرائز لا تقلّ شأناً عن الوراثة الجسمانية فهي تفعل فعلها ولا تحيد عن قانونها .

كذلك وراثة القوى العقلية فإنها تسير على غرار واحد هي ووراثة الصفات الجسمانية والغرائز فالذكاء والبله والغطرسة والدعة والعبقرية والغباوة والفضائل والرذائل تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل ومن السلف إلى الخلف في الأسرة

---

(١) طالع في هذا كتاب : Sane Psychology, by *R. I. S. Mc. Dowall*

الواحدة حتى لتطبع كل أسرة بطابع خاص من تلك القوى والصفات . ولنا في التاريخ القديم والحديث أمثلة حيّة لهذا النظام العجيب فالخطابة مثلاً كانت الطابع الذي عرفت به أسر «هرتنسيوس[١] Hortensius» و «كوريون[٢] Curions » ذكوراً وإناثاً والشعر كان الصفة الغالبة على أسْرة زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي كما كانت الجرائم من خصائص آل « برجيا[٣] Borgia» والطغيان من شيم آل « فسكنتي[٤] Visconti » وحب السلطان من أخلاق آل « مدسيس[٥] Médicis » والعناد والخيلاء من خلال آل « ستورت[٦] Stuart » والكبر وحب الكفاح والشجاعة من طبائع آل « جيز Guise »[٧] والشعر والعلم والأدب في القرن التاسع عشر من مميزات كثير من الأسر الشرقية العربية نعدّ منها آل اليازجي وآل البستاني وآل الحداد .

وربما تنكبت الوراثة في تسلسلها الخط الموصول فاستكنّت جيلاً أو أكثر بل ربما توارت قروناً عدة قبل أن تنقل سمات العبقرية من فرد إلى فرد في الأسرة الواحدة[٨] .

ذلك عمل الوراثة أما عمل البيئة فعمل القَيْن الذي يجلو فرند السيف أو عمل الجوهري الذي يصقل الدر ويثقبه أو عمل الصانع الذي يصنع من خسيس

---

(١) عميدهم « كنتوس هرتنسيوس Quintus Hortensius » (١١٤ — ٥٠ قبل الميلاد) خطيب روماني شهير كان خصم شيشرون ثم صديقه .

(٢) عميدهم « كايوس كوريون Caius Curion » (— ٥٢ قبل الميلاد) خطيب روماني عظيم تقلب في مناصب الدولة وألب الجمهور على قيصر .

(٣) آل برجيا أسرة إيطالية من أصل إسباني وكان أشد أفرادها قسوة وجرائم « قيصر برجيا César Borgia » فقد كان سياسياً ماهراً ولكن مرائياً غليظ الكبد اقترف جرائم كثيرة ومات سنة ١٥٠٧ ولقد اتخذه « مكيافلي » مثالا في كتابه « الأمير » .

(٤) أسرة إيطالية شهيرة اغتصبت عرش ميلانو وحكمت من سنة ١٢٧٧ — ١٤٤٧

(٥) آل مدسيس هم أمراء فلورنسا بإيطاليا وقد عرف منهم لوران الأول برعايته للآداب والفنون وحمايتها (١٤٤٨ — ١٤٩٢)

(٦) أسرة إسكتلندية كبيرة كان منها كثير من ملوك إسكتلندة وإنجلترا .

(٧) أسرة فرنسية مشهورة عميدها « كلود دي لورين Claude de Lorraine » نصر فرنسوا الأول على شرلكان .

(٨) طالع في هذا كتاب : Hygiène et Physiologie du Mariage, par *A. Debay*

المعادن أشكالا من الدمى والحلى مصقولة لامعة مزخرفة .

وأثر البيئة في صقل المواهب أو في التخلّق بأخلاق معيّنة أمر مسلّم به حتى لقد تسرّب هذا القانون إلى الأمثال السائرة كقول الغربيين : « قل لي من تعاشر أقل لك من أنت » وحتى ذهب الفيلسوف الفرنسي « تين » إلى القول إن قيمة الإنسان من قيمة البيئة التي يعيش فيها بل ذهب إلى إرجاع كل عمل أدبي أو فني إلى عناصر ثلاثة هي العرق والبيئة والزمن .

ومن أطرف الأدلة على تأثير البيئة ما رواه محيي الدين بن عربي قال : « حكى لنا بعض الأدباء عن ابن الجهم وكان بدوياً جافياً لما قدم على المتوكل وأنشده بمدحه بقصيدته التي يقول فيها يخاطب الخليفة :

أنتَ كالكلب في حفاظك للودْ　　　د وكالتيس في قراع الخطوب
أنتَ كالدّلو لا عدمناك دلواً　　　من كبار الدّلا كثير الذَّنوب[1]

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة لفظه وعرف أنه ما رأى سوى ما شبّه به لعدم المخالطة وملازمة البادية فأمر له بدارٍ حسنة على شاطىء دجلة فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف يغذي الأرواح والجسر قريب منه وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به وكان يركب في أكثر الأوقات فيخرج إلى محلات بغداد فيرى حركة الناس ولطافة الحَضَر ويرجع إلى بيته فأقام ستة أشهر على ذلك والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشده فحضر وأنشد :

عيون المها بين الرّصافة والجسر　　　جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

فقال المتوكل : لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة . »[2]

ومهما يكن من شأن هذه القصة من حيث الحقيقة والخيال وسواء حدثت بحضرة الخليفة أم لم تعرفها مجالسه فإنها لا تعدو أن تكون مثلاً لتأثير البيئة

---

(١) من معاني الذنوب : الدلو والحظ والنصيب .

(٢) ديوان علي بن الجهم بتحقيق خليل مردم وقد نقلت هذه القصة فيه عن « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » لمحي الدين بن عربي ٢ — ٣ ويرى محقق الديوان أنها قصة خيالية يظهر عليها الوضع وأن البيتين إن صحت نسبتهما لعلي بن الجهم فإنما يكون قالها في أحد مجالس المتوكل يعبث ببعض الندماء أو المضحكين . (ص ١١٧ من الديوان)

في قريحة الشاعر فمن البداهة أن يتناول البدوي عناصر تشبيهاته من بيئته البدوية حتى إذا سكن الحضر ووقعت عينه على مجالي الحضارة فيه تأثرتها نفسه واستوحى عناصر التشبيه من بيئته الجديدة .

* * *

ونجيب الحداد ابن الوراثة وابن البيئة وابن العصر .

فأبوه سليمان الحداد أديب شاعر ترعرع مع أبيه جرجس في دار الأمير بشير الكبير الحافلة بالأدباء والشعراء وله في النثر والشعر آثار طيبة منها ديوانه المسمى « قلادة العصر » . وأم نجيب الحداد هي ابنة العلامة الكبير الشيخ ناصيف اليازجي وهو من هو وأخواله الشيوخ حبيب وخليل وإبرهيم اليازجي أدباء علماء شعراء كان لهم الأيادي البيض على الآداب والعلوم وخالته هي الشاعرة الشهيرة وردة بنت ناصيف اليازجي فهو إذن من دوحة تمتّ بعروقها وفروعها إلى الأدب والعلم والشعر .

وأكثر من ترجم لنجيب الحداد ذكر أنه ترعرع في بيت علم من جدّه لأمّه اليازجي الأكبر وأخواله ووالده . . . وتلقى آداب اللغة العربية وفنونها على خاليه الشيخين خليل وإبرهيم اليازجي[1] وأنه ربي في مهد الأدب وورث ملكة الشعر من جدّيه ورضع لبان النظم والنثر من خاليه وتلقى بعض العلم عنهما ولكنه فطر على الأدب منذ نعومة أظفاره فنظم الشعر قبل أن يدرك الحلم[2] .

فالوراثة كانت عاملاً كبيراً في موهبته اللدُنية سهّلت من عمل البيئة وساعدتها في صقل الموهبة وتجليتها فانبثقت وبزغت وضّاحة مشرقة .

ولقد كان للبيئة أثرها الفعّال في تنمية ملكة الشاعرية في نجيب الحداد وإعداد نفسه لتلقي الآداب والعلوم .

فأول ذلك الأثر أنه عاش في بلدين وهبهما الله قسطاً وافراً من الجمال فقد قضى القسم الأول من طفولته وردحاً قليلا من شبابه ببيروت ولبنان فانطبعت في نفسه صور جميلة من زرقة البحر وزرقة السماء ومن هدير الأمواج وسبحات الكواكب

---

(١) « الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ص ١٥

(٢) « تراجم مشاهير الشرق » لجرجي زيدان ج ٢ ص ٢٣٦

كما انطبعت فيها صور فاتنة من مشارف لبنان وهضابه ومن أوديته وينابيعه ومن غاباته وحدائقه وشاء له القدر أن يتمّ طفولته وحداثته ثم شبابه كله في ثغر الإسكندرية الجميل فتستكمل في نفسه صور البحر الزاخر والموج المتلاطم وألوان السحب المنعكسة على صفحات الماء ألواحاً متباينة الألوان متعددة المفاتن وتكمل في جوانحه صورة الجبل في تلعاته وريوده بصورة السهل في بطاحه المنبسطة وسواقيه المتغنية وزراعاته الخصبة مما تقع عليه النفس والعين في الريف المصري الجميل الوادع فضلاً عن حدائق الإسكندرية الملتفّة الغصون والأوراق والمنقوشة بمختلف الأزهار والرياحين وبله شواطئ الإسكندرية الجميلة في هوائها البليل ونسيمها العليل ورمالها الناعمة يحمل إليها الموج دفقات الزبد فتغتسل الرمال بها وتتنشّف بنسيج الشمس فتلتمع وتتألق لمعان التبر وتألق الذهب.

وتتعاقب عليه آثار البيئة في جوانبها العملية فتيسّر له الدراسة المنتظمة في مدارس لبنان والإسكندرية وتخصّه بنعمة كبيرة إذ تمنحه المعلم الماهر والأستاذ الكفيّ ولا ريب أن الموهبة الفطرية إذا تعهدتها عناية المربي القدير أزهرت ثم أينعت في وقت قصير فقد كان من نعم الله على نجيب الحداد وعلى الشعلة المقدسة المتأججة في صدره أن تذكي ضرامها نفثات خاليه العلامتين الشيخين خليل وإبرهيم اليازجي فتلقي العلم عن مثلهما اختصار للزمن أي اختصار وعدول عن الجداول إلى النبع الفوّار الفيّاض ولقد عرفتُ أدباء عرفوا الشيخ إبرهيم اليازجي واختلفوا إليه يزورونه لماماً فكان لهم من تلك الزورات أجزل النفع فأخذوا عنه الفوائد والفرائد واستبانت لهم سبل اللغة والأدب معبّدة موطّأة فمشوا بها خبباً إلى غاياتها وعرفت كذلك أدباء عرفوه بآثاره فانكبّوا عليها يستوعبونها استيعاباً فكانت لهم نعم المرشد ونعم الهادي إلى ذخائر اللغة والأدب وكنوزهما فما بالك بمن يتلقى العلم على يديه مشافهة ويجلس إليه أياماً متتابعة وأشهراً موصولة إنه لا بدّ بالغ من أمنيته مبلغاً عظيماً وهكذا كان شأن نجيب الحداد فقد عبّ من المناهل اليازجية فساعدته على دراسته الخاصة وعلى الضرب في مناكب الزمن طائفاً بحدائق العرب يقطف منها ويجني أنضر الريحان وأينع الثمار.

وقدر الله كذلك لنجيب الحداد أن يعيش فى بيئة أدبية يحفّ فيها بالأدباء ويحفّون به فالصحافة في عهده كان قد نبه شأنها واستقام أمرها وسارت

تؤدّي رسالتها فكان من حملة اللواء فيها ولم تكن الصحافة في عهده غريبة عن الأدب بل كانت فرعاً منه ولئن أصبحت اليوم علماً قائماً برأسه له فنه وأصوله وقواعده إن الأدباء لا يزالون أنجح الصحافيين فالأدب من الصحافة يقوم مقام الروح من الجسد وحياة كل عمل مستمدّة من الروح المتردد في ضلوعه وحناياه .

وما كانت بيئة نجيب الحداد مقصورة على الصحافة وعلى الأدب المتفرع عليها بل كانت إلى ذلك بيئة أدبية خالصة قوامها الشعر ينظمه في الدواعي التي تهز قريحته وشاعريته وقوامها النثر يستخدمه في مقالاته المختلفة الأغراض والمباعث وقوامها الشعر والنثر معاً يفصّلهما برودا قشيبة لروائع المسرح حتى نهض المسرح نهضة مباركة وكان الحداد فيها دعامة من أقوى الدعائم .

وبيئة نجيب الحداد بيئة عربية مصرية لبنانية تأثّرها وأثّر فيها فعاش في تلك البيئة معتمداً على تراث ضخم من أدب العرب وبلاغتهم يستند إليهما في شعره ونثره ليجلو المعاني القديمة مسبوكة في قالب جديد أو ليجلو المعاني العصرية يستلهمها أدب العصر وحضارة العصر فاختلف نثره بين السجع والترسّل ونسج في الشعر على منوال شعراء الرقة في العصر الأموي وصدر العصر العباسي . على أن تلك البيئة العربية الخالصة لم تكن بمعزل عن المؤثرات الغربية فحمله تمكنه من اللغة الفرنسية إلى ترجمة ذلك العدد الكبير من الروايات والتمثيليات وحمله على أن يتأثر البيئة الفرنسية ولو عن بعد ناقلاً منها إلى بيئته العربية آدابها ومعارفها بل حوادثها وأخبارها وما من شكّ في أن شاعريته قد طافت بشعراء تلك البيئة ممن عاش في القرن التاسع عشر أو عاش في القرون السابقة فلقي الظل الظليل عند «كورناي» و «راسين» و «موليير» من أصحاب المدرسة القديمة ووجد متعة الخيال الخصيب والقصص التاريخي عند «دوماس» كما وجد التجاوب الروحي عند «هوجو» و «لامرتين» و « موسه » من أصحاب المدرسة الحديثة فنقل ماشاء له أن ينقل من آثارهم . بيد أن شاعريته تأثرت «لامرتين» تأثراً خاصّاً ولعل نفسه المعذبة وجدت في زفرات «لامرتين» رجع نواحها فنهلت من مدامع الشاعر الفرنسي وظهر أثر ذلك الريّ على صفحات شعر الحداد بارزاً في بعضها متوارياً وراء حجب النفس في بعضها الآخر .

وكان نجيب الحداد إلى ذلك كله ابن العصر الذي عاش فيه فقد اشترك في حوادثه وأحداثه وشارك في نزعاته وأمياله وراقب وسجّل أطواره وأمواج حركاته فنزل من عصره في الصميم متميزاً بالعاطفة الصادقة والسريرة الصافية والخلق القويم والقلم العفّ والنفس التي تساير مواكب العصر فتقبل في الحياة وفي الادب كل طريف جديد لا يندّ عن الأخلاق والعادات العربية ولا يشذّ عن بلاغة الضاد . وكان من الطبيعي أن تنعكس على الأدب أنوار المدنية الجديدة فالأدب روح العصر وصورته فبرز نجيب الحداد في طليعة المجددين يستوحي آيات العصر ويصوّرها شعراً ونثراً في أطرٍ من البلاغة العربية والبيان الرصين .

أما تأثيره الخلقي في محيطه فكان على أعظم جانب فقد ظفر من محبة الناس وإجلالهم بما لا يظفر به منهم إلا أصحاب النفوس الرفيعة والقلوب الكبيرة وأصحاب الخلق الذي لا يمتّ إلى أخلاق أهل الأرض بسبب وإنما يمتّ إلى أخلاق الملائكة وخلال الملأ الأعلى ولقد صوّرت لنا ذلك الأثر أقلام إخوانه من الأدباء يوم رثوه وأبّنوه ذارفين عليه الدمع السخين ويوم كتبوا عنه وترجموا له ملتزمين فيه جانب المؤرخ الصادق .

وأما تأثيره الأدبي إبّان حياته وبعد وفاته فكان واسع الأثر ممتد الأفق يقفنا عليه تهافتُ الناس في عصره على مطالعة آثاره وشهود تمثيلياته « حتى أصبح يتغنى بشعره المنشدون ويتناشده الناس لما اختصّ به من الطلاوة والسهولة والإبداع ولذلك فقد بعد صيته وانتشر شعره في جميع أرجاء القطرين المصري والسوري انتشاراً لم يسبق لسواه من مشاهير الكتّاب . . وله في جريدة "لسان العرب" المقالات الرّنانة التي بلغ دوّيها جميع أنحاء هذا القطر ودلت على مكانته العليا من البلاغة في عالم الإنشاء فزادته شهرة على شهرته الواسعة وأقبل القراء عليها من كل صوب لما بلغت إليه من بعد الصيت بفضل هذا المنشئ البليغ وقد أدرك سرّ بلاغته من قرأ كلامه من الملوك فأهداه سلطان زنجبار رحمه الله وسام الكوكب الدرّي من الدرجة الثالثة مكافأة له عما بذله في خدمة العلم وحضر بعض رواياته الدون "كارلوس" الذي ملك جانباً من إسبانيا وهو مطالب بعرشها الآن عند تجواله في القطر المصري فأهدى إليه دبوساً من اللؤلؤ

الثمين وبعث إليه برسمه وقد كتب عليه بخط يده كتابة تدل على شدة اعتباره لهذا الروائي الشهير . »(١)

تلك شهادة عشير له هو الشاعر الناثر المرحوم طانيوس عبده نستدل منها على أدب نجيب الحداد وأثره في عصره .

ثم يحطم القدر ذلك القلم الرهيف الذي يمجّ سنانه الشهد وذوب العطر وتأخذ الحميّة والوفاء وقدس الذكرى بعض خلصائه فيطبعون ما اجتمع لديهم من شعره وكان هو في أخريات أيامه قد شرع يجمعه ويرتّبه (٢) ويجمعون له من مقالاته « منتخبات » وينهضون إلى طبع بعض رواياته فتقبل الناشئة ويقبل الشباب ويقبل القراء عامة على تلك النفائس يتغذون منها في جشع ونهم .

وحسبنا دليل على ذلك قول شيخ من شيوخ الأدب اليوم هو الأستاذ مارون عبود متّعه الله بالعمر الطويل فقد كان هو وكثيرون غيره ممن تأدب في ريعان الصبا على نجيب الحداد وجعلوه في عداد الأئمة الذين أخذوا عنهم واقتدوا بهم قال : « . . . كان للمقالة الشأن الأول في فجر النهضة ولهذا نرى أثر الشدياق وإسحق ظاهراً في جميع من أتوا بعدهما فقد كان يوصينا أساتذتنا بقراءة مقالات هؤلاء وخصوصاً درر الأديب ومنتخبات النجيب فكان هذان الكتابان في قماطرنا – طبقاتنا – إلى جانب نهج البلاغة نظل ننهل منها ونعلّ حتى نخرج من قاعة الدرس جارّين الذيل تيهاً كالتغلبي . . . لنجيب منتخبات طبعت مرات لتهافت الناشئين عليها كانت مثالا لنا في ذلك الزمن نطبع على غراره . . . ونجيب الحداد شاعر مطبوع وله ديوان كنا نقتله مدارسة نطوف به من الجلد إلى الجلد مرات. . . »(٣)

وشهد شاهد من أهلها . . .

---

(١) مقال طانيوس عبده في ذيل الديوان .

(٢) يستفاد من كلام السيدة ألكسندرا أڤرينو ناشرة الديوان أن الديوان لم ينتظم شعر نجيب الحداد كله فثلاثة أرباعه متفرق في رواياته الكثيرة ولا يصح أن ينتزع منها بل سيطبع معها ويستفاد أيضاً من كلامها أن هناك قصائد ومقطعات بين أيدي أصدقاء الحداد الكثيرين دون أن يجعل نسخاً منها عنده فالتمستها منهم بألسنة الجرائد والكتب فجاءها منها شيء أودعته الديوان وبقيت أشياء .

(٣) « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود ص ١٥٠ – ١٥٣

الفصل الثالث

جَوانبُ نجيبِ الحدّاد

١ ـ آثار نجيب الحداد

ينتظم آثارَ نجيب الحداد ديوانٌ من الشعر اسمه « تذكار الصبا » يقع في مئة صفحة وأربع صفحات من القطع الكبير وقصصٌ وروايات تمثيلية(١) تبلغ الثلاثين ما بين مؤلفة ومترجمة مزج فيها الشعر بالنثر ومقالاتٌ كثيرة زوّد بها الصحف وجُمع له منها بعد وفاته « منتخبات » في كتاب بلغت عدد صفحاته المئتين والأربعين صفحة من القطع الكبير .

والطابع العام البارز الواضح في هذه الآثار كلها هو الشاعرية فقد كان الرجل شاعراً في خلقه شاعراً في نثره شاعراً في شعره تغلب عليه الشاعرية في كل أثر من آثاره مؤلفاً كان أم مترجماً ولو ابتعد موضوع ذلك الأثر من جواء الشعر وأفق الشاعرية فمن الظلم له أن يسلكه بعض مؤرخي الأدب في عداد المترجمين أو في عداد كتّاب القصة أو في عداد الصحافيين ليس إلا . . . لقد كان الرجل صحافياً وكان مترجماً وكان من كتّاب القصة وضعاً ونقلاً ولكن فعل كل ذلك بروح الشاعر طبعاً لا تطبّعاً فسواء نظم أم سجع أم ترسّل

---

(١) أشهر رواياته التمثيلية : « صلاح الدين الأيوبي » و « المهدي » وهذه من تأليفه و « روميو وجوليت أو شهداء الغرام » و « حمدان » و « السيد أو غرام وانتقام » و « البخيل » و « فيدر » و « الرواية الشعرية » وهذه من نظمه و « الرجاء بعد اليأس » و « ثارات العرب » وهاتان من تأليفه و « قتل القيصر » و « سنا » و « بيرينيس » و « عداوة الأخوين » و « زايير » و « أوديب » و « عمرو بن عدي » وهذه من تأليفه و « حلم الملوك » و « ميلادي » و « الطبيب المرغم » .

وأشهر قصصه : « الفرسان الثلاثة » و « فرسان الليل » و « حديث ليلة » و « غرام واحتيال » و « غرام الأخوين » و « فضيحة العشاق » و « العاشقة المتنكرة » و « غصن البان » .

تدفّق الشعر على ألفاظه وأسلوبه من حيث يشعر ولا يشعر وليس له في ذلك رأي ولا يدان فإنما هي الفطرة الشاعرة وفيضها المتدفّع المتدفّق يسيل حتى إلى القصص المترجمة بلهَ المسرحيّات فيرويها بماء الشعر فتنضر وتزدهر .

ولقد أنصفه جرجي زيدان إذ قال فيه : « ويجوز عدّه من الصحافيين ولكن الشاعرية غالبة عليه . »[١] وأنصفه شاعراً وبخسه حقه ناثراً الأب لويس شيخو فقال عن شعره ونثره : « وكان شعره أجود من نثره حذا فيه حذو الشعراء العصريين . »[٢] وقال عنه في موضع آخر : « أما الشيخ نجيب فإنه أصاب بنثره وشعره فخراً بلغ به مبلغ الأدباء اليازجيين . . . وشعره من أفضل ما نظمه الشعراء العصريون . »[٣] وأنصفه المنفلوطي ففصّل الرأي فيه فقال : « كاتبٌ من أحسن كتّاب هذا العصر وشاعرٌ من أرقّ شعرائه ومترجمٌ من أقدر المترجمين على الترجمة السهلة الفصيحة السائغة . . . »[٤] وقال مثل ذلك فيه الأستاذ أحمد حسن الزيات فنعته « بالأديب الكبير والصحفي البارع والمترجم القدير »[٥] فوارى الشاعرية وراء خميلة الأدب لأنها فرع من فروعها . على أن حكم زيدان يبقى هو الحكم الأغلب فلنجيب الحداد من فطرته وبيئته وعصره ما أرهف فيه الشاعرية وجعله في طليعة شعراء عصره « فلا العصر هو كل شيء ولا الموهبة الفردية هي كل شيء والأمر الذي لا مراء فيه هو أن العصر لا يخلق الموهبة إذا هي لم توجد في صاحبها وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح لإظهار المواهب والعبقريات . ثم إن العصر إذا لم يخلق الموهبة خلقاً فهو بلا ريب يوجهها ويهيئ لها أسباب تمامها واستوائها . . . »[٦] لقد كان نجيب الحداد صاحب موهبة ما في ذلك شك وكان عصره مستعدّاً لتلقّي

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان ج ٤ ص ٢١٣

(٢) « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو اليسوعي ج ٢ ص ١٦١ و ١٦٢

(٣) « تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين » للأب لويس شيخو اليسوعي ص ٦٨ و ٦٩

(٤) « معجم سركيس » حرف الحاء رقم ٧٤٤

(٥) « تاريخ الأدب العربي » لأحمد حسن الزيات ص ٤١٩

(٦) « ابن الرومي حياته من شعره » لعباس محمود العقاد ص ٥٦ (الطبعة الثانية)

المواهب وإبراز العبقريات فتعاون هذان العاملان وشاركهما عامل ثالث له شأنه وله أثره وهو البيئة فكان نجيب الحداد الشاعر .

على أنه إذا تقصّينا آثار الرجل بعد أن استخلصنا منها طابعه العام صوّرته لنا تلك الآثار في خمس صور :

١ – نجيب الحداد الوطني

كان الشرق العربي الوطن الأكبر لنجيب الحداد لا يعرف فيه حدوداً ولا تخوماً ولا يعترف في قرارة نفسه بالفواصل الجغرافية أو السياسية التي تقسم بلاد العرب إلى دول أو دويلات . ينظر إليها جميعاً على أنها وطن فرد للعرب أجمعين فاختلاف الأسماء وهمٌ من الأوهام وقيام الحواجز ضربٌ من الخرافة وتعدّد البلاد إنما هو تعدّد الأعضاء من الجسم الواحد فكأنه كان داعية لجامعة الدول العربية ما دام أبناء تلك الدول يؤلّفون أمّة واحدة هي الأمة العربية وفي هذا يقول :

كلنا واحدٌ لنا وطن فر ... دٌ وإن عدّدت بنا الأسماء
إنما نحن هيكلٌ واختلاف ال ... إسم وهمٌ فكلنا أعضاء

ويأخذ هذا الوطن العربي الأكبر نصيبه من نفثات نجيب الحداد فبينا هي تتدفّق حبًّا وولاءً لمصر إذا هي تفيض حناناً إلى لبنان إذا هي تتفنن في وصف دمشق وأرباضها وأهلها وكان صاحبها إذا رأى بلداً من بلاد العرب قد حظي بجانب من جوانب الحضارة والرقي دفعته عاطفته العربية إلى أن يتمنّى لكل بلد من تلك البلاد قسطاً مماثلاً من ذلك الجانب .

تنهض مصر إلى الاستفادة من المخترعات الحديثة فتمدّ في أرضها طرق الحديد وتجري عليها القُطُر (١) والمركبات فيسجّل شعره هذا الحدث فلا ينفض قلمه من وصفه حتى يختم قصيدته قائلا :

فلا برحتْ مصرٌ تسود بظلّه ... عسى أن تغار الشّام في ذاك من مصر

(١) القطر : جمع قطار . والقطار من الإبل قطعة منها يلي بعضها بعضاً على نسق واحد ومن هنا أطلقت على قطار سكة الحديد .

وإذا نحن انتقلنا من التعميم إلى التخصيص رأينا عاطفته الوطنية موقوفة على مصر فمصر هي الوطن الذي فتح له صدره وأنزله منه منزلة الابن الحبيب فبرّ الحداد بمصر وأخلص لها في حبه وجهاده فعبّر عن هذه العاطفة الصادقة في قصائد تعدّ من عيون شعره .

ويوم يطرق بابه ملك الموت لينتقل به إلى العالم الثاني تعصر قلبه ذكرى الوطن الأول حيث مسقط الرأس ومدارج الطفولة وملاعبها ويعصف به الحنين إلى لبنان فيهتف حزيناً وهو محتضر ويودّع الدنيا ببيت واحد كان آخر ما نظم وهو :

ولّى « النجيب » فأرخوا قبراً له قد مات مشتاقاً إلى لبنان

ب – نجيب الحداد السياسي

عاد نجيب الحداد إلى مصر بعد الثورة العرابية واختار الصحافة أو اختارها له القدر ميداناً لنشاطه وعمله وكانت مصر ترزح تحت نير الاحتلال فشرع قلمه ذائداً عن الحمى مدافعاً عن العرين يصبّ جامات نقمته على الظلم والاستبداد ويظل هذا دأبه في الجرائد التي كتب فيها أو الجرائد التي أنشأها سواء أخذ العسف والجور بخناق مصر أم خيّما على ربوع الشرق العربي أجمع حتى إن السلطان عبد الحميد « طارد صحيفته وحرّج عليها الدخول إلى البلاد العثمانية كي لا يقرأها أفراد الأمة فيتنبهوا إلى أعماله ويكونوا مع الأحرار يداً واحدة عليه . »(١)

والسياسة صفة طارئة على نجيب الحداد فما هو من أهلها ودهاقينها ولا فيه ميل إلى تعاطيها ومزاولتها ولا إلى الكتابة فيها فأنّى للشاعر المغرّد أن يلتوي في مطاوي السياسة ويضرب في شعابها المتعرجة فمقالاته في السياسة إذن مقالات رجل حرّ مخلص صادق يجهر بما يُسِرّ ويجأر(٢) بما يثير ويطلقها كلمات مدوّية تنبعث من قلب أبيّ الضيم لا ينام على الأذى ولا يسكن إلى الظلم والاستعباد .

ولكن الصحافة اليومية مهمتها الأولى هي السياسة فلا بد له إذن أن يخوض

---

(١) « تاريخ الصحافة العربية » للفيكنت فيليب دي طرازي ج ٤ ص ٢١٨

(٢) جأر : صاح

غمراتها ولو كره وأن يقف بالمرصاد لألاعيبها يكشف منها عن الزيف والباطل ويوجه أبناء وطنه إلى سبيل العزة والكرامة وإلى طريق الكفاح والجهاد .

وعندما يملي عليه القدر أن يحوّل جريدته « لسان العرب » اليومية إلى مجلة أسبوعية نجده يتحرر من ربقة السياسة وينطلق في رياض الأدب شادياً مغرّداً فيسمع لشدوه وصداحه أجمل الأصوات والأصداء .

ويجمل بنا ونحن نتكلم على الصحافة والجريدة والمجلة أن نسجّل لواضعي هذه الألفاظ فضل وضعها وتحميلها المعاني المعروفة بها اليوم .

فكلمة « الجريدة » من وضع أحمد فارس الشدياق .

وكلمة « المجلة » من وضع إبرهيم اليازجي .

وكلمة « الصحافة » من وضع نجيب الحداد(١) .

ج – نجيب الحداد الاجتماعي

صوّر نجيب الحداد عصره تصويراً صادقاً فالكتّاب والشعراء هم في كل عصر قادة الرأي والفكر وأقلامهم هي الأبواق التي ينفخون فيها أصوات الرضى مرّة وأصوات السخط مرة أخرى ويذيعون منها نغمات الرقيّ والإصلاح تارة وألحان الحوادث والظواهر تارة أخرى .

ونجيب الحداد كان قلمه أحد أبواق العصر نفخ فيه مختلف الأصوات والأنغام مصوّراً الحياة الاجتماعية في عصره .

تطغى على مصر في عهده بل على الشرق العربي أجمع موجة من الحضارة الغربية فيحمد لها خيرها ومحاسنها ويندد منها بالقبيح المستهجن الذي عصف بالأخلاق والعادات العربية وكان أدواء اجتماعية سرت في جسم الأمة تنفث فيه السم الذُّعاف . وعزيزٌ على من يتصدّى للإصلاح الاجتماعي أن يرى العدالة الاجتماعية معصوبة العينين مغلولة اليدين منكسة العلم فهبّ يرفع رايتها ويفكّ وثاقها وينزع عن عينيها العصابة التي حجبت عنها نعمة النور

(١) « تاريخ الصحافة العربية » للفيكنت فيليب دي طرازي ج ١ ص ٥ و ٧

فاقرأ له مقاله « الغنيّ والفقير » ومقاله « الخادم والمخدوم » تقف منهما على نضاله في هذا الموضوع العظيم الخطور والخطَر .

وتتفرّع على هذه العدالة عدالة أخرى هي أن تصون الدولة للمؤلفين والمتفننين حقوق التأليف فقد بدأ الحداد يطالب الحكومة بسنّ قانون لحماية التأليف وها نحن أولاء بعد بضعة عقود من السنين لا نزال من هذه الأمنية حيث كان نجيب الحداد(١) .

ومسألة تحرير المرأة كانت أيضاً من المسائل التي شغلت الأذهان في عصره ونازع القوم فيها الإقدام والإحجام غير أنها لقيت من نفسه هوًى غالباً فقد عُني الحداد بتحرير المرأة وتعليمها وعني بمشكلاتها ونادى برأيه في هذا الموضوع غير هيّاب ولا وجل ولعله مهّد لمن جاء بعده فأمعن في الجهاد والنضال ويصفه الدكتور إبرهيم عبده بأنه « أول من عني بمشاكل المرأة » وعندما يتكلم الدكتور عن نصيب جريدة الأهرام من الدعوة لنهضة المرأة وقد كان نجيب الحداد أحد كتّابها يقول : « اقرأ في الأهرام فصولاً ممتعة عن حقوق المرأة من أقلام مصاحفيها أو محرريها ولن تجد في هذه الفصول توجيهاً إلى طفرة بل إن كاتبنا — وهو هنا نجيب الحداد — يشرح حقوق المرأة في أوربا ثم إذا فرغ من الشرح اتجه إلى مواطنينا محدثاً قراءه بأن " . . . تلك حالة النساء في بلاد الغرب نوردها لمن عندنا عسى أن يكون فيها بعض التنبيه على الحمية والحضّ على الاقتداء والغيرة فإن القدوة يجب أن تكون في كل تقدم وارتقاء لا أن تكتفي نساؤنا فقط بقدوة اللسان في الألفاظ ومحاكاة القدود في الأزياء وعسى أن تدخل هذه الغيرة بيننا فقد عهدنا مقر الغيرة ومقامها في قلوب النساء "(٢) »

د — نجيب الحداد الأديب

كان نجيب الحداد أديباً في كل ما تحتمل هذه الكلمة من معان فإذا

(١) طالع في « منتخبات نجيب الحداد » مقالا له في هذا الموضوع عنوانه : « حق ضائع » .

(٢) كتاب « جريدة الأهرام » للدكتور إبرهيم عبده ص ٢٣٦ والفقرة المنسوبة إلى الحداد من مقال نشر بجريدة الأهرام في ٢٨ من أبريل سنة ١٨٩٣

اختـُلف على معنى الأدب والأديب وتضاربت الآراء في وصف الأدب والأديب فآثار الحداد الأدبية تجمع تعريفات الأدب والأديب من جميع أطرافها ففيها اللفظ الصافي والأسلوب الرصين والمعارف الإنسانية وفيها الخيال الخصب والجمال المترقرق وفيها الوقع والتأثير ومهزّة النفوس إلى الخير والحق والجمال .

ولقد جال الحداد في ميادين شتى من الأدب فبرّز في أدب البحث مغترفاً من نبعٍ ثرٍّ فيّاض من علوم العرب وعلوم الغربيين فإذا رأى الرأي أو أصدر الحكم شعر القارئ أن وراء ذلك الرأي وذلك الحكم ذخيرةً من المعارف لا تسلس قيادها إلا للمتمكن الضليع .

وجوّد في أدب المقالة وكانت في عصره الطراز المعْلَم في الكتابة والإنشاء وحلاّها بالسجع الذي تتشرّبه الأفهام سلساً سائغاً قويّاً رصيناً لا قلق فيه ولا تكلف وعرّج من أدب المقالة على أدب الوصف فكان شاعراً في نثره تقرؤه فلا تمالك أن تصيح صيحة حسّان وتقول : شعر ورب الكعبة (١) . وآثار الحداد مملوءة بالنثر الموشّع بلألاء الشعر .

وكان لنجيب الحداد في أدب المسرح القِدح المعلّى فإليه يعود الفضل في شدّ أزر المسرح العربي وتزويده بالروائع والنفائس مترجمة ومؤلفة . لقد بدأت قبله المحاولات وخاض الأدباء هذا الميدان الجديد فما إن يتسلم الحداد الراية حتى يجري بها إلى قصيّ الغايات فلولا تمكنه من اللغة والأدب ولولا قريحته الخصبة الجيّاشة ولولا السهولة التي ينظم بها وينثر ولولا البلاغة التي تعنو لقلمه خاضعة مطواعة لتأخرت نهضة المسرح جيلاً برأسه ولو أنسأ الله في أجله لظفر المسرح منه ولا شك بثروة ضخمة تزيد أضْعافاً مضاعفةً عن الثروة التي خلّفها له(٢).

ولم يغفل نجيب الحداد شأن أدب القصة فقد عُني به وأتحف القرّاء في عصره بل المكتبة العربية على الإطلاق بطائفة صالحة من القصص

---

(١) سمع حسان ابنه يصف الحيوان الذي لسعه بقوله : « كأنه ملتف في بردي حبرة فصاح : « شعر ورب الكعبة » . ومن هذا القبيل وصف «شاتوبريان» لكتاب « تلماك » المنثور بقلم « فنلون » فقد قال عنه : إنه من بليغ الشعر .

(٢) توفي نجيب الحداد في الثانية والثلاثين من عمره وترك للمسرح نحو ثلاثين رواية .

المؤلفة أو المترجمة فإن أخذ عليه بعض النقّاد تصرّفه في الترجمة[١] فإنما تصرّف في التعبير لا في المعاني نزولا عند أحكام البلاغة العربية والذوق العربي وقد أشار إلى ذلك في مقدمة رواية « الفرسان الثلاثة » .

وكأنما الترجمة قد شحذت قريحته فعكف على التأليف والاقتباس وشغل العقول والقلوب بروايات فاتنة آسرة من مثل رواية « غصن البان » وإليك ما يقوله عنها صديقه طانيوس عبده : « وله أيضاً رواية "غصن البان" وهي رواية عواطف ووجدانات أبدع فيها ما شاءت البلاغة في وصف الشعائر وإظهار وجدانات النفس ببيان لم يسبقه إليه سواه من كتّاب العرب ولم يطرقه غيره من كتّاب هذا العصر لصعوبة هذا الموقف وقد ضاهى فيه أشهر كتّاب الإفرنج كما تشهد بذلك هذه الرواية وأكثر رواياته التمثيلية . ولهذه الرواية نكتة لا بأس من إيرادها وهي أن واحداً من كبار القوم قرأها ففتن بها وآلى على نفسه حلفة صادق أن يقبّل يد كاتبها ولم يكن له معرفة شخصية به فما زال يسأل عنه حتى لقيه في مجلس حافل بالأدباء فبرّ بيمينه وأخبر القوم بما دعاه إلى تقبيل تلك اليد . »[٢]

بقيت جولاته في أدب اللغة والعلوم اللسانية فأثره فيها موزع بين مقالات يذود فيها عن حياض اللغة كمقاله «لغة الدواوين» وبين أجوبة لغوية أو صرفية أو نحوية يردّ بها على السائلين أو يجيب عن اقتراحات المقترحين أو يفوز فيها بالجوائز وينال قصب السبق بين المتبارين وأمثلة هذا كله منشورة منثورة في المجلات الأدبية .

ويبقى بعد ذلك أدب الفلسفة أو أدب الحكمة أو خطرات في الأفكار يصوغ بها تجارب النفس ويقيّد بها الحكمة الشاردة والرأي الخمير وفي «منتخباته» نماذج من هذا كقوله : « مهما اجتهدت المرأة أن تقلد الرجل فجلّ ما تصل إليه أنها لا تصير رجلا ولا تعود امرأةً » . وكقوله : « السبب في أن النساء أعفّ من الرجال أن المرأة ترى الخيانة انكساراً والرجل يراها فخراً » .

---

(١) « حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر » لجاك تاجر ص ١٥٠

(٢) مقال طانيوس عبده في ذيل الديوان .

هـ – نجيب الحداد الشاعر

نصل بعد هذه الجولة في الترجمة لنجيب الحداد إلى خاتمة المطاف وهي في الحق مستهلّ المطاف إلى خاتمته . نصل إلى نجيب الحداد الشاعر وإن كنا لمسنا في النثر المحيط بكل صورة من الصور الأربع السابقة قبساً من الشاعرية يتألق فيها فتلألئ به .

١ – الشاعر الاتباعي

طبيعة المرء في كل فن وعلم تحدوه أولاً إلى الاستيعاب والمحاكاة فإذا ارتوى غليله وقسا عوده استقلّ بالطريقة التي توحي بها إليه عبقريته وفنه الأصيل فلا عجب أن يطرّس الحداد على آثار الأقدمين من شعراء العرب فيبدأ بعض قصائده بالغزل فيذكر العذيب ورنده وأطلال العقيق وأخفاف الرواسم والطلل النحيل بالرقمتين ويصف الحبيب بالخصر الضعيف والردف الثقيل وجفن الطرف السقيم إلى مثل هذه الطوابع التي يحفل بها الشعر القديم فما هو إلا أن تستقيم له في الشعر طريقة وفنّ يتجاوبان والعصر الذي يعيش فيه ويتساوقان والحضارة الجديدة حتّى نسمع منه هذه الصيحة وهو يصف السيدات في المركبات :

صاح هذي هوادج الحضر اليو مَ فخلّ الهوادجَ الباديات
ودع النوقَ والفلاةَ فلا نو قاً بأحيائنا ولا فلوات
ودع العيسَ والحداءَ لقومٍ ألفوا عيسهم وزجر الحداة

وهو يوم يتحرر من رواسم القديم وخصائصه اللفظية لا يتحرر من بعض أبواب الشعر المعروفة كالمدح والرثاء والإخوانيات ولكنه يقصرها مع قلتها في شعره على العاطفة الصادقة والشعور الأخوي فلا يمدح إلا صاحب فضل ولا يرثي إلا صديقاً أو حبيباً ولا يساجل إلا الأخ الناصح الودود أو القريب الذي يخصه في فؤاده بالتجلة والمحبة .

وكان من عادة الشعراء في عصره أن ينظموا التواريخ الشعرية ويتفننوا بها فجرى هو أيضاً في هذا المضمار واجتمعت له من هذه التواريخ طائفة مشت فيها الشاعرية والتاريخ جنباً إلى جنب فمن عادة التاريخ الذي يعتمد على حساب الجمّل أن يطغى على الشاعرية ويزيحها عن مكانها ليحلّ محلها ولكن التاريخ والشاعرية كانا في شعر الحداد توأمين في الحسن والبهاء .

٢ – الشاعر الغنائي

وتنتفض الشاعرية بعد ذلك في جوانح نجيب الحداد فإذا هو شاعر غنائي من الطراز الرفيع متأثّرٌ شعراء العاطفة في العصر الأموي وصدر العصر العباسي تأثُّرَه شعراء فرنسا العاطفيين في القرن التاسع عشر من مثل «موسّه» و «لامرتين» .

ويذهب الأستاذ مارون عبود إلى أن الحداد « في نظمه الهين اللين متأثر جدّاً بجده المرحوم ناصيف اليازجي وهذا ما يؤيد مزعم النقادة الفرنسي (تين) في العرق . انظر إلى ديباجتيهما فتحسب أنهما نسجتا على نول واحد ففي شعر نجيب سهولة وبساطة كلام جده . » (١) ولئن كنا نرى رأي الأستاذ الكبير في الفطرة والعرق وقد فصّلنا ذلك في الكلام على تأثر الحداد وتأثيره إننا لا نرى رأيه في ديباجة الشاعرين فحسب الوراثة أن تنقل الشاعرية من سلف إلى خلف ولا يشترط فيها أن تنقل الجانب الغلاّب من تلك الشاعرية فالشيخ ناصيف اليازجي متنبي الديباجة فحل الأسلوب يخلو شعره من الهنوات التي نجدها في شعر نجيب الحداد خلوّه من الرقة والعذوبة المترقرقة في شعر حفيده فالنجيب نسج على نول كثيّر وجميل وأبي نواس إلا مجونه من المتقدمين وعلى نول البهاء زهير من المحدثين على أنه أسمى من البهاء معنًى وألطف أداءً وإنما يشتركان في الرقة والسلاسة .

أبدع نجيب الحداد في الشعر الوجداني وهذا الضرب من الشعر شعر

---

(١) « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود ص ١٥٣

الوجدان لا يجيده إلا من كان مثل النجيب رقيق القلب سمح الطبع معذّب النفس فهو إذا صبا ولها وعبث أو إذا شكا من الدهر ومن الناس أو نفّس عن صدره بالنفثات والزفرات أو رثى حبيباً أو عزيزاً سال فؤاده قطراتٍ تسكبها عيون الألفاظ والقوافي وأودع روحه معانيه فنبضت بالحب والوله والجوىً وهكذا يكون الشعر الحيّ الخالد على الدهر ولن يخلد شعر الوجدان إلا إذا كان قطعة من القلب وخفقات من الروح .

وشاعرنا كان شاعراً مجدّداً غير أن تجديده لم يبنه على أنقاض اللغة والأسلوب العربي فقد وسعت ألفاظه وأسلوبه وهما من لغة الضاد في المقام الأثير وسعت الجديد من المعاني والموضوعات فاختال في ثوبه العربي الرصين وبدا أجمل ما يكون مظهراً ومخبراً . رأى الحداد أن الغرب كثير الحفاوة بالشعر القصصي وأن هذا الطراز من الشعر ليس غريباً على قرائح العرب ففي تراثنا منه أمثلة تتموّج فيها الشاعرية بماء الحسن والجمال ولكنها في نطاق ضيّق محدود فهبّ يبعثه من مرقده ويحتذي فيه شعراء الغرب فطوّع له أولاً الموشحات ثم رأى أن القافية العربية لا تضيق بالقصة أو الحكاية وأن البيان العربي وهو البيان الغني بوجوه التعبير كفيل أن يؤدّي معاني الخاطر وخلجات النفس ومناجاة الفؤاد خير أداء فاعتمد على القافية السمحة والبيان الثريّ وأخضع لهما السرد والحكاية وساعدته الشاعرية على السمو والترفع فجاء شعره القصصي حلواً عذباً قويّاً رصيناً يهزّ القلوب ويشجيها .

وشاعرنا كذلك شاعر وصّاف بل شاعر مصوّر يقدم لك المعنى حيناً في صورة خاطفة ويقدمها لك أحياناً في صورة موفورة الأضواء والظلال يمعن في رسمها إمعاناً فلا يفوته من المعنى المرسوم أخفى الدقائق فهو في هذا يجاري ابن الرومي في تقصّي المعنى فلا يترك منه شاردة ولا آبدة وديوانه مفعم بهذه الصور نذكر منها قصيدته في وصف القمر فقد بلغ فيها غاية التجويد والإبداع . ولقد يعتمد أحياناً في الوصف لا على الحال المجردة ولا على الخيال المبتكر بل على العلم ومسائله المقررة ولكنه يتناولها بريشة الرسّام وعبقرية الشاعر فيلوّن بها شعره ومن ذلك قوله :

والدمع مهما اغتدى رخيصاً   يغلو إذا باعه الكرامُ

كقطرة البحر وهي ملحٌ تحلو متى صبّها الغمام(١)

ويعزّ علينا أن يحول ضيق المقام دون الاستشهاد بل الإكثار من الاستشهاد بشعره الرقيق الرائق المصفّى فلا أقل إذن من أن نعرض عليك بعض الصور .

قال في الحسان اللواتي احترقن في سوق الشفقة بباريس :

كنّ ناساً فصرن ناراً فأصبحـــن رماداً بها فصرن هباءَ

وقال في انحسار الليل وطلوع الصباح :

إلى أن بدت كفّ الصباح براية تلوح على جندٍ من الليل مسودِّ
وغابت مصابيح النجوم كأنما طفاها نسيم الفجر من فمه الوردي

وقال في عادة إهداء دواوين الشعر إلى من لا يفهمه من أرباب المال :

من كل غرٍّ له يتلى القريض كما تتلى الصلاة على آذان سكرانِ

وقال في العالم المتواضع :

كالضوء يصغر جرمه في نفسه ويفيض عنه النور من مصباحهِ

وقال في لغة العيون :

واللحظ ينطق والشفاه صوامتٌ لغةً تخط عيوننا كلماتها

ومن هذه القصيدة الصورة الجميلة الآتية :

عاتبتها فتحدّرت من جفنها درر وددتُ أكون من قطراتها
ورنت إليّ فقابلتها أدمعي فكأنها نظرتْ إلى مرآتها

وقال في حسناء سوداء الشعر :

بيضاء يحدق شعرها بجبينها فتريك عين الصبح في وجه الدجى

ومن الأبيات المرقصة قوله :

وقاسمتُ من أهوى فؤادي والهوى فكان فؤادي عندها والهوى عندي

إلى كثير من هذه الصور والغرر .

---

(١) هذا المعنى طرقه الشاعر القديم فقال :

كالبحـــر يمطره السحاب وما له فضل عليـــه فإنه من مائـــه

ولكن الحداد استخدمه في معرض غير معرض الشاعر القديم وفصله تفصيلا جديداً وأدخل فيه عنصرين جديدين هما الملوحة والحلاوة فزاداه روعة وجمالا .

والحداد شاعر خدم المسرح خدمات جليلة لانزاع في ذلك ولا جدال وخصّ المسرح بجانب كبير من شعره تضمنته أغلب رواياته على أن لواء السبق في الشعر التمثيلي معقود لخاله الشيخ خليل اليازجي صاحب رواية « المروءة والوفاء » فقد أتم نظمها في سنة ١٨٧٦ وهو أول من سلك هذا المسلك ومثّلت روايته وطبعت غير مرة ويقول في هذا جرجي زيدان : « ويمتاز الشيخ خليل عن سائر شعراء هذه النهضة بعمل لم يقدم عليه سواه نعني تأليف رواية « المروءة والوفاء » وهي شعرية تمثيلية مبنية على حكاية حنظلة والنعمان تحدّى فيها كبار كتّاب الإفرنج في وضع الروايات التمثيلية في الشعر . »(١)

ومن آثار نجيب الحداد رواية شعرية ذكرها طانيوس عبده في جملة الروايات التي ألفها نجيب الحداد أو ترجمها وقال إنه « احتذى فيها مثال خاله المرحوم الشيخ خليل اليازجي في روايته المروءة والوفاء(٢) » وعبثاً حاولنا أن نجد السبيل إليها في المراجع والمظان المصرية وكيفما كان الأمر فثلاثة أرباع شعر نجيب الحداد منظوم في رواياته والشعر فيها ممدود الجناح يرفّ على الحوار ويرفرف بالنجاء وخواطر النفس وكفى بهذا كله فضلا يطوّق عنق المسرح بقلائد الشعر العذب الرقيق .

٢ ـ منزلة نجيب الحداد

وبعدُ فمنزلة نجيب الحداد من الأدب القومي منزلة قائدٍ من قُوّاد النهضة أخلص لوطنه وأمته وأخلص لفنه وأدبه فمشى قُدُماً في ساحات النضال خفّاق اللواء موفور العتاد يشكّ علم النبوغ والعبقرية في أعالي القمم ويمهّد السبيل لمن يسير بعده فيزيل منها الشوك والعوسج ويغرسها بالورد والريحان .

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان ص ٢٠٧ (الطبعة الثانية) .

(٢) مقال طانيوس عبده في ذيل الديوان .

ويوم يذكر الوطن والأدب النبغاء النابهين والمكافحين المجاهدين في الربع الأخير من القرن الماضي سوف يتعطر لسانهما بذكر النجيب فقد كان لهما الابن البار قدّم نفسه قرباناً على مذبحهما وبقي روحه المنارة تنير بشعاعها الجوّال آفاق الحمى فتهدي السُّراة والمدلجين(١).

ويوم يحلو للشرق العربي أن يقلّب صفحات التاريخ الحديث ويطالع الأسماء في سفر العاملين الخالدين سوف يجد اسم نجيب الحداد مكتوباً فيه بأحرف من نور هو ضياء عينيه وضرام قلبه ونفسه وشعلة مواهبه المقدسة .

لقد كان نجيب الحداد الشاعر الذي تغنى بآمال وطنه ونشج بآلامه و كان الكاتب الاجتماعي الباذل لأمته بمنعرج اللوى النصيحة الحرة الخالصة وكان الأديب الذي وطّأ أكناف الأدب للجمهور وأدنى له منه القطاف والمجاني في نثر تناثرت فيه درر الفكر ونظمٍ انتظمت فيه المعاني الحسان مقدودة من العاطفة المشبوبة والوحي النضير .

فمنزلة نجيب الحداد في قومه منزلة العامل المجدّ والمتفنن المجدّد سار في طريق الرشاد والسداد وتبعه المعجبون والمريدون فكان عنواناً من عنوانات النهضة في أخريات القرن التاسع عشر . ولئن طاب للغرب أن يفخر بشعرائه الغنائيين إن الشرق العربي ليطيب له أن يزهى بنجيب الحداد الشاعر الغنائي الذي تسلكه الشاعرية في عداد المشهورين من الشعراء الغنائيين . لقد كان قلبُ الإنسان محور شعره فسبر منه الأغوار وسمع في دقّاته خلجات الحزن والطرب وخفقان السخط والرضى ولمس في عاطفته بدوات الفضيلة ونزوات الرذيلة فصهر كل هذا في بوتقة الشعر وصاغ منه القصائد الخافقة بنبضات قلب الإنسان فكان شاعر الإنسانية في عصره وفي كل عصر وحسبه ذلك فخاراً في مجال المباهاة والفخار .

---

(١) السراة : جمع سار وهو السائر ليلا . والمدلجون : جمع مدلج وهو السائر من أول الليل أو فى آخره .

الفصل الرابع

مِنتخبات مِن آثارِ نجيب الحدّاد

١ — نجيب الحداد الوطني

الشرق

حب الوطن هو الصفحة الأولى بل الكلمة الأولى من سفر الحياة ولقد كان نجيب الحداد وطنياً صادق الوطنية تختلج جوانحه بحب الوطن والنهوض به إلى أعلى مراتب العز والسؤدد ولم تكن عاطفته الوطنية مقصورة على لبنان ومصر وطنيه الأول والثاني بل كانت مبسوطة الجناح إلى الشرق العربي أجمع . قال يصف الشرق ويوجه الخطاب إلى أبناء الشرق :

يا بني الشرقِ أين ذاكَ الضياء أين تلكَ النفوسُ والآلاء
أين ذاكَ المقامُ تحسدهُ الشمــــسُ بهاءً وأين ذاكَ العلاء
أين مَنْ طاولوا النجومَ فودَّتْ شرَفاً أنها لهمْ حصباء[1]
أين أرضٌ قد خصَّها اللهُ بالوحــــي وجاءتْ من قومها الأنبياء
قد عهدنا في الشرقِ مطلعَ أنوا رٍ فما لهُ عراهُ المساء
أيُّ شيءٍ جرى على الكونِ حتى انـــقلبتْ عن نظامِها الأشياء
فرأينا غربَ البلادِ منيراً وغدَوْنا وشرقُنا الظلماء
لستُ أعني بالنورِ شمسَ سماء بل شموساً ما أطلعتْها سماء
أبرزتْها أيدي الرجالِ بآفا قِ ذَكاء تغارُ منه ذُكاء[2]

---

(١) الحصباء : الحصى . الواحدة حصبة .

(٢) الذكاء : حدة الفؤاد . وذكاء بضم الذال : اسم علم للشمس .

هي شمسُ العلى تمثّلها الشمـ ـسُ كما مثّلَ النجومَ الماء

كتبتْ أحرف المساواةِ فيها فتلتها حرّيةٌ وإخاء(١)

كلمةٌ كلُّها محبّةُ أوطا نٍ ورأسُ الإيمانِ ذاك الولاء

عظّمْتهُ ممالكُ الغربِ حتى بلغتْ منه في العُلَى ما تشاء

ومنها :

كم ننادي يا قومَنا ثم لا نسـ ـمعُ غيرَ الصّدى وكم ذا النداء

أَوَلسنا القومَ الأولى ملكوا المدْ نَ ودانتْ لديهمُ الغبْراء

والأولى سطّرُوا المعارفَ واستجـ ـلَوْا خفايا الوَرَى فزالَ الخفاء

ليس نَيْلُ العُلى بصعبٍ إذا ثا رتْ إليه حميَّةٌ قعساء

نحنُ أبناؤها ومَنْ نَصَرَ الآ باء تنصرْ بفضله الأبناء

كلُّنا واحدٌ لنا وطن فَرْ دٌ وإن عدّدتْ بنا الأسماء

إنما نحنُ هيكلٌ واختلافُ الـ إسمِ وهْمٌ فكلُّنا أعضاء

وسبيلُ العُلى قريبٌ هو الأُلْـ ـفَةُ فيها المُنى وفيها الرّجاء

وعلى الله نجحُنا في ختامٍ إن ثبتْنا وصحَّ منا ابتداء(٢)

دمشق

العربي الحر كل بلاد العرب بلاده فلا عجب ممن ولد بلبنان ونشأ بمصر أن يتغنى بجمال دمشق ولو على السماع . قال يصف دمشق وقد ذكرها له أحد الفضلاء الراجعين منها فأجاد وأطرب فماذا كان يقول لو أنه رآها بأم العين :

---

(١) الحرية والإخاء والمساواة هي الفضائل الثلاث التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية وكان الشرقيون إذ ذاك مأخوذين بهذه الفضائل يستوحونها في جهادهم السياسي والأدبي .

(٢) ديوان « تذكار الصبا » للمترجم له ص ٥ – ٧ (الطبعة الثانية) .

سَقَى اللهُ من وادي دمشقَ مراتعا جنَيْنا بها زهرَ المسرَّةِ يانِعا(١)
وحَيَّا ليالي الأنس في حَيِّها فكمْ جلَوْنا بها بدرًا من الحسنِ طالِعا
بدور حِسان ما لهنَّ مغارِبٌ فلست ترَى فيهنَّ إلا مطالِعا
سوافرُ ما تُلفَى لهنَّ براقعٌ جعلْنَ من الحسنِ البديعِ براقِعا
بكلّ مَهاةٍ يُخجلُ الرّمحَ قدُّها ويقطعُ لحظاها السيوفَ القواطِعا
تحدّثُ عيناها حديثَ جمالِها فيغدو لها قلبُ المتيَّمِ سامِعا
وتخطرُ بين العاشقينَ فيغتدي لها كلُّ قلبٍ في الصبابةِ راكِعا
إذا جُليتْ للشيخِ آياتُ حسنِها توهَّمها عصرَ الشبيبةِ راجِعا
غصونٌ مع الأغصانِ في الروضِ تنثني نجومٌ يبارينَ النجومَ الطوالِعا
كأَنَّ جِنانَ الخلْدِ قد أُنزلتْ لنا نشاهدُ فيها حُورَها والبدائِعا
سَقَاها الحَيا من جنّةٍ كلُّ مَنْ بها كآدمَ لم يخرجْ من الخلدِ طائِعا(٢)
وحَيَّا أويقاتاً يعودُ كبيرُها صغيراً فيغدو من فمِ الكأسِ راضِعا
وحيّا كراماً قبل راحٍ تواضعُوا فما زادَهمْ كأسُ المدامِ تواضُعا(٣)

(١) توسع الشاعر في استعمال كلمة يانع صفة للزهر وإنما يقال ثمر يانع وينيع أي ناضج وقد ينع الثمر وأينع إذا أدرك وحان قطافه واليانع أيضاً الأحمر من كل شيء وثمر يانع إذا لون ولعل الشاعر انساق إلى هذا الاستعمال أخذاً عن بعض المتقدمين كالحريري والشريشي والقاضي شهاب الدين بن فضل الله والصفدي فقد وصفوا الزهر والغصن بأنه يانع ولقد أشار الشيخ إبرهيم اليازجي إلى ذلك في « لغة الجرائد » .

(٢) الحيا والحياء : المطر

(٣) يقول إنهم متواضعون قبل الشراب فما زادتهم الخمر تواضعاً ولا كان لها أثر في أن تكسبهم تلك الصفة الحميدة . ولعنترة أبيات جميلة في الكرم والكرامة إبان الشراب وبعده يقول فيها :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
فإذا سكرت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فلا أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

وحَيَّا النَّدَى تلكَ الأزاهرَ بالضحَى ... وألبسَها تاجاً من الدرِّ لامِعا
وباركَ في تلك المياهِ وطيبِها ... فما أحسنَ المَجْرَى وأحلَى المنابِعا
ولا زالتِ الأرواحُ ترسُمُ فوقَها ... سـطوراً فتقراها الطيورُ سواجِعا
ولا زالَ في ضعفٍ عليلُ نسيمِها ... فكم جرَّ ذيّاكَ العليـلُ منافِعا
وحَيَّا الصَّبا تلك الغصونَ فكم غدتْ ... تحـيِّي الوفودَ المنتشينَ رواكِعا
ولا زالَ مخضرُّ الأَراكةِ خالعاً ... على (بَرَدَى) بُرْداً من الظلِّ واسِعا[1]
تحـيِّي نداماهُ الشموسَ غواربا ... بهِ ويحيُّونَ البدورَ طوالِعا
كرامٌ صفَوْا نفساً وراقُوا مناظراً ... وقد حسنُوا خلقًا وطابوا مسامِعا
صفا كلُّ شيء عندهمْ فتكادُ عن ... صفاهمْ ترى سرَّ الضمائرِ ذائِعا
ترى الأنْسَ فيهمْ حاضراً كلَّ ساعةٍ ... كأنْ لم يرَوْا للأُنسِ فعلاً مضارِعا[2]
صغيرهُمُ في الخطبِ شيخٌ وشيخُهمْ ... تراه لدى الغاراتِ أمردَ يافِعا[3]
سقى الله ربْعَ الشامِ قَطراً بقدرِ ما ... سقيناهُ في يومِ الوداعِ مدامعا

(١) الأراك : شجر واحدته : الأراكة . وبردى : اسم نهر بدمشق .

(٢) يريد بالفعل المضارع المستقبل لتتم المقابلة بين الحاضر والاستقبال وفي مثل هذا يقول المتنبي في قصيدة له يمدح بها سيف الدولة :

إذا كان ما تنويه فعلا مضارعاً ... مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

والمعروف أن المضارع إذا ألقيت عليه الجوازم قلبت معناه إلى الماضي . وهذا مأخوذ من قول أبي تمام يصف الخمر في قصيدته التي يمدح فيها يحيى بن ثابت :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها ... كتلاعب الأفعال بالأسماء

(٣) اليافع : الغلام ترعرع وناهز البلوغ . والأمرد : الشاب طر شاربه ولم تنبت لحيته . مؤنثه مرداء وجمعه مرد . ويقال مرد على جرد أي شبان مرد على خيول جرد . والأجرد من الخيل : السباق . وتمثيل الشيوخ بالمرد في الغارات يقول فيه المتنبي من قصيدة مدح بها محمد ابن سيار بن مكرم التميمي :

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد

دِيارٌ أخذنا الشوقَ منها وديعةً لدينا وخلّينا القلوبَ ودائِعا
تقرّبُها أشواقُنا فنكادُ من توهّم لقياها نمدُّ الأصابِعا
ونذكر أيامًا بها ثم ننثني نضمُّ بأيدينا الحَشَى والأضالعا(١)
نقول عسى من فرّقَ الشملَ بيننا يكونُ بلطفٍ منهُ للشَّمْلِ جامِعا(٢)

مصر والمصريون

إذا كانت عاطفة العربي نابضة خافقة بحب بلاد العرب جمعاء فأجدر بها أن تكون أشد نبضاً وخفقاناً بحب البلد الذي نشأ فيه الشاعر واغتذى من خيره وجالت في ميادينه سوابح جده وجهاده . قال في مصر والمصريين :

يا أرضَ مصرَ تحيَّةٌ وسلامُ وسقاكِ من صَوْبِ الغمامِ رُكامُ(٣)
بلْ أنتِ غانيةٌ عن المطرِ الذي يهمي فإنَّ النيلَ فيكِ غمامُ
نهرٌ تباركَ ماؤُه فتكادُ أن تُمْحَى بطهرِ مياههِ الآثامُ
ويكادُ لو رَشَفَ العليلُ زلالَهُ يشفَى العليلُ وتذهبُ الأسقامُ
يُحيِي البلادَ بمائِهِ فكأنهُ الـــرُّوحُ التي تحيا بها الأجسامُ

(١) لعل الشاعر استقى معنى هذا البيت من بيت « الصمة بن عبد الله » الشاعر البدوي الأموي الذي يقول :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا

وهو بيت من قصيدة له تسيل رقة وجوى نظمها في بنت عمه متشوقاً إليها بعد أن باعدت بينه وبينها الأيام واشتط عمه في مهر ابنته ومطلع القصيدة :

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا

(٢) ديوان « تذكار الصبا » ص ٥٢ — ٥٤

(٣) صوب الغمام : منسكب الغمام . الركام : المتراكم بعضه فوق بعض من السحاب .

إن شابَهُ كَدَرٌ ففي أكدارِهِ صفوٌ وفي فيضانِهِ إنعامُ[١]
يجري على أرضٍ مباركةٍ كما تجري فتُحْيي الشاربينَ مُدامُ
أرضٌ إذا لم يعْلُ في أرجائها عَلَمٌ فإنَّ كِرامَها أعلامُ
لبستْ من المجدِ التّليدِ مطارِفًا ولها من المجدِ الطريفِ وسامُ
وتعانقتْ والفخر من قِدَمٍ كما قد عانقتْ ألفَ الكتابةِ لامُ[٢]
مجدٌ به هَرِمَ الزمانُ ولم يزلْ غضًّا وقد شهدتْ به الأهرامُ
هرمانِ زانا صدرَ مصرَ فأشْبها نهديْنِ زانهما سنًا وتمامُ
نهدانِ كان الدهرُ يرضعُ منهما إنّ الزمانَ لمجدِ مصرَ غلامُ
أرضُ الفراعنةِ الذين بنَوْا لها في الدّهرِ ما لا تبلغُ الأوهامُ[٣]
بنيانُ عزٍّ في السطورِ مخلَّد وبناء مجدٍ في الصخورِ يقامُ
لا بدْعَ إنْ بقيتْ مآثِرُهمْ فقد بقيتْ جسومهمُ وهنَّ رِمامُ[٤]

---

(١) إشارة إلى « الطمي » الذي يصاحب ماء النيل أيام الفيضان فيكون عاملا على خصب الأرض .

(٢) وهنا يستوحي الشاعر أيضاً اللام والألف المتعانقتين ليصف التلازم والتعانق بين أرض مصر والفخر وكثيراً ما استوحى الشعراء القدامى معانيهم من معاني الحروف أو معاني أدوات الصرف والنحو وما إلى ذلك . وفي مثل هذا يعتمد أبو العلاء على الألف واللام أداة التعريف ليصف الشهرة وذيوع الصيت فيقول في القصيدة التي يرثي بها والدته :

مضى وتعرف الأعلام فيه غني الوسم عن ألف ولام

(٣) الوهم يطير بفكر الإنسان إلى أبعد مطارح الغايات ويصور له الشيء أو الشخص الذي يفكر فيه على أرفع درجات الصفة المتخيلة . فأجمل ما يقال في وصف الأمر الراهن أنه يفوق الوهم . قال ذلك أبو نواس في مدح الأمين :

وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الحصى فلها علينا حرمة وذمام
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تقطع دونه الأوهام

(٤) الرمام : ما بلي من العظام مفرده : رمة .

جثثٌ كأنَّ الدهرَ هابَ مساسَها ... أو كان معْها للزمانِ ذمامُ(١)
يا حبّـذا أرجاءُ مصرَ وحبّذا ... للزهْوِ فيها مرتَعٌ ومَسامُ(٢)
الشرقُ هامٌ وهْيَ معقدُ تاجِهِ ... والشرقُ جسمٌ وهْيَ منهُ الهامُ(٣)
والشرقُ وجهٌ يزدهي بجمالِهِ ... بِشْراً ومصرٌ ثغرُهُ البسَّامُ
هي جنّةُ الدنيا التي يُجْلَى بها ... وجهُ الزَّمانِ وتبْسمُ الأيامُ
وحديقةُ العلمِ التي يزكو بها ... ثمرُ العقولِ وتنبتُ الأقلامُ
إن غابَ بدرُ كمالِها فيما مضى ... فاليومَ عادَ البدرُ وهْو تمامُ

ومنها :

إن كان قد لَؤُمَ الزّمانُ بما جَنَى ... في أرضِ مصرَ فأهلُ مصرَ كرامُ
يلقَوْنَ حَدَّ الحادثاتِ بأنفُسٍ ... يرتدُّ عنها الدّهرُ وهْوَ كَهامُ(٤)
مِنْ كلِّ مَنْ يحيي الرّجاء فؤادَهُ ... صبراً ويعصمُ صبرَهُ الإسلامُ
متواضعونَ على الجلالِ وإنما ... عندَ التواضعِ يعرفُ الإعظامُ
كُرَماء قد أَلِفُوا النَّدَى خلقاً فما ... لهمُ على غيرِ النَّدَى لوّامُ
يتحمّلونَ الضَّيْمَ عن نزلائِهِمْ ... وجوارهمْ والجار ليس يُضامُ
شِيَمٌ من العَرَبِ الأكارمِ إنها ... ما أورثَ الأخوالُ والأَعمامُ

(١) من أجمل ما قيل في إمساك الزمان عن الأذى بيت فريد لخليل مطران من قصيدة أوحى بها إليه منديل الحبيبة فقد عثر يوماً في صوان ملابسه على ذلك المنديل وقد أبلاه الزمن ولم يبق إلا على الجانب الذي فيه اسم الحبيبة مطرزاً فقال يخاطب المنديل ويصف عمل الدهر :

أصابك ناب قارض من فم البلى ... إلى موضع فيه اسمها فتجنبا

(٢) المسام : المرعى

(٣) الهام : جمع هامة وهي رأس كل شيء . وعيب هذا البيت أن القافية اضطرت الشاعر إلى استعمال الهام بدل الهامة .

(٤) الكهام : الكليل الضعيف .

إرْثٌ قد احتفظوا بهِ ولطالما قد ضيّعتْ ميراثَها الأقوامُ
ولوَ أنَّهُ إرْث النّضارِ لفرّقتْ بَدَراتِهِ الفقراءُ والأيتامُ(١)
فخراً بني مصرٍ فإنَّ فخارَكمْ باقٍ على الأيامِ ليس يرامُ
تهديكمُ الدنيا المدائحَ والثّنا فهي الفواتحُ والسّلامُ ختامُ(٢)

تذكار مصر

وقليل على الشاعر أن يطيل القول في البلد الذي آواه ونشأه وأن يخصه بنفثاته في كل معرض من معارض الكلام فها هو ذا الشاعر يذكر مصر واصفاً متغزلا :

زُرْ أرضَ مصر وقفْ على ربواتِها واحفظْ فؤادكَ من ظُبَى ظَبَياتِها(٣)
وتوقَّ أنفـاسَ النّسيم فإنّها ممزوجةٌ بالحُبِّ من غاداتِها
أرضٌ كساها النيلُ زخرفَ وجهِهِ وأعارَ بَرْدَ ميـاهِهِ نسماتِها
فبدتْ كأنّ الأرضَ وجهُ مليحةٍ وكأنها خالٌ على وَجَناتِهـا(٤)
للهِ روضتُها وقد حَيَّا الصَّبَا أغصانَها فحَنتْ له هاماتِهـا
وتحدّثَتْ أمواهُها فوقَ الحَصَى توحي لطيرِ أراكهِ نغماتِها
والأرضُ من ظلِّ الغصون كأنّما نثرتْ دنانيرٌ على جَنَباتِهـا

(١) البدرة : القدر العظيم من المال .
(٢) ديوان « تذكار الصبا » ص ١٦ – ١٨
(٣) الظبى جمع ظبة : حد السيف أو السنان ونحوهما . والظبيات جمع ظبية : أنثى الغزال.
(٤) الخال : شامة في البدن ويغلب على شامة الخد . ومثل هذا التشبيه ورد للمتنبي في مديحه لسيف الدولة يوم نهض إلى ثغر الحدث وانتصر على الروم فقال فيه :

غصب الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الأرض خالا

ولكلمة الخال معان كثيرة في اللغة فمن معانيها : البرق والكبر واللواء والرجل السمح والرجل المتكبر والظن والوهم وكثير غير ذلك جمعها أو جمع أغلبها بطرس كرامة في قصيدته الخالية ومطلعها :

أمن خدها الوردي أفتنك الخال فسحّ من الأجفان مدمعك الخال

ولقد جلستُ إلى الغزالةِ ساعةً غفلتْ بها عنَّا عيونُ وُشاتِها
واللحظُ ينطقُ والشفاهُ صوامتٌ لغةٌ تخطّ عيوننا كلماتِها(١)
حتى إذا طفحَ الغرامُ ولم تعدْ كلِمُ العيونِ تفي بوجداناتِها
عاتبتُها فتحدّرَتْ من جفنِها دررٌ وددتُ أكونُ من قطراتِها
ورنتْ إليّ فقابلتْها أدمعي فكأنَّها نظرتْ إلى مرآتِها
إنّ القلوبَ غصونُ أربابِ الهوى ومدامع الأجفانِ من ثمراتِها
فإذا جرى فيها نسيمُ صبابةٍ نثرتْ ثمار الوجدِ من عبراتِها
دمعٌ تراهُ مقلتي في خدِّها ماءٌ ونفسي منْهُ في جمراتِها
ضدَّانِ قد جمعا به وكذا الهوى فيه السعادةُ مازجتْ آفاتِها
لتكنْ كما تهوى الصبابةُ إنّني لا ألتقي فيه سوى لذّاتِها
تعذيبُها عذبٌ يروقُ ورودُهُ عندي فكيف العَذْبُ من حالاتِها
سَكِرَ الفؤادُ بها بأقداحٍ من الـ أحداقِ دارَ السُّكرُ في داراتِها
يسعى بها قمرٌ لو أنَّ نجومَنا منهُ لكان البدر من هالاتِها
فصفحتُ في سكري بخمرةِ حبّهِ عما أساءَ إليَّ من هنواتِها
هيهاتَ ما الدنيا ليذكر ذنبها وسعادتي بلقاكَ من حسناتِها

---

(١) نظم شوقي في هذا المعنى بيته المشهور الذي يقول فيه :

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عينيّ في لغة الهوى عيناك

ولعل مصدر هذا وذاك بيت لفتى من أهل الكوفة ينسب إلى الصبوة كان مطيع بن إياس ويحيى ابن زياد قد جلسا إليه وفاوضاه وأخذا في أشعار العرب ووصفها البيد فقال :

لأحسن من بيد يحار بها القطا ومن جبلي طي ووصفكما سلعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

لقْيا أخالُ الأرضَ دارةَ درهمٍ ... فيها وكلّ العمرِ من ساعاتِها
حتى لأحسبُ أنّ نفسي في رُبَى ... جنّاتِها والخلد بعض حياتِها
وأظنّ صرف الموتِ ألينَ جانباً ... من أن يكدّرَ بيننا خلواتِها
وأقولُ دعنا يا مماتُ وعجْ إلى ... نفسٍ ترى راحاتِها بمماتِها (١)
كم من نفوسٍ تشتهيكَ حزينةً ... تدعو وتبسطُ في الدُّعا راحاتِها
فإلى دعاتِكَ فاستجبْ كرماً ودَعْ ... أهلَ الصبابةِ عنكَ في جنّاتِها (٢)

لبنان

إن الوفاء خلة القلوب النقية النبيلة فقد وفى الشاعر لمصر وطنه الثاني فذاد عنها وخدمها بقلبه وقلمه ولسانه وجرى حبها في جوانحه فرعاه ونعم به . على أن وفاءه لمصر لم ينسه لبنان وطنه الأول حيث مسقط رأسه ومدارج طفولته وحداثته . فقال يصف لبنان ويحن إليه :

قفْ في رُبَى لبنانَ بينَ وهادِهِ ... واقرا السّلامَ لأهلِهِ و بلادِهِ
جبلٌ بأرضِ الشّرقِ قامَ وفوقَهُ ... قد قامتِ الأطوادُ من أفرادِهِ
أنقى نفوساً من بياضِ ثلوجهِ ... وأسحّ جوداً من مسيلِ عِهادِهِ (٣)

---

(١) استقى الحداد معاني هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة من قصيدة « البحيرة » للشاعر الفرنسي « لامرتين » حيث يقول :

O temps, suspends ton vol ! et vous, heures propices,
Suspendez votre cours !
Laissez-nous savourer les rapides délices
Des plus beaux de nos jours !
Assez de malheureux ici-bas vous implorent :
Coulez, coulez pour eux;
Prenez avec leurs jours les soins qui les dévorent;
Oubliez les heureux.

(٢) ديوان « تذكار الصبا » ص ٣٦ – ٣٧

(٣) العهاد : أول مطر الربيع .

وأشدّ من آسادهِ وأشمّ من ... أَطوادِهِ وأعزّ من أندادهِ

قومٌ لهمْ عمَّنْ سواهمْ رفعةٌ ... مثل ارتفاعِ الطودِ عن أنجادِهِ (١)

جمعُوا اليراعةَ والقَنا فمخضَّبٌ ... بدمائِهِ هذا وذا بمدادِهِ

حازُوا الفخارَ قديمَهُ وحديثَهُ ... والمجدَ بين طريفِهِ وتِلادِهِ

وتفرَّدُوا بالحسنِ في غزلانِهِ ... يزهو وبالإحسانِ في آسادِهِ

شوقي إلى تلك الديارِ وأهلِها ... شوقُ المريدِ إلى بلوغِ مرادِهِ

طُبِـعَ الزَّمانُ على العنادِ وقد رأى ... من عجزِنا ما زادَ طبعَ عنادِهِ

فيدومُ لا ينفكُّ قائدَ طوعِنا ... وندومُ لا ننفكُّ طوعَ قيادِهِ

نُدْعَى بنيهِ على الخطاءِ ولم نجدْ ... من والدٍ يقسو على أولادِهِ

يقضي الذى يرضَى وكلّ فتًى بهِ ... يرضى بما يقضيهِ رغم مقادِهِ

من ليس يمتلكُ العتادَ لدفْعِ ما ... يؤذيهِ فالتسليمُ خيرُ عتادِهِ

عوّدتُ نفسي الصبرَ حتى هانَ لى ... والمرءُ قد يحلو لدى معتادِهِ

وإِذا فؤادُ فتًى تصبَّرَ مكرهاً ... فالفضلُ للإِكراهِ لا لفؤادِهِ (٢)

---

(١) الأنجاد : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .

(٢) ديوان « تذكار الصبا » ص ٤٨

حنين

وهذا الحنين إلى لبنان يوحي إليه قبيل مماته ببيت من الشعر يفيض ألماً ولوعة وتحناناً يؤرخ به وفاته وهذا هو[١] :

مات النجيب فأرّخوا قبراً لهُ   قد ماتَ مشتاقاً إلى لبنانِ[٢]

٢ ـ نجيب الحداد السياسي

الإنجليز لا تقف عقبة في سبيلهم وهم عقبة في كل سبيل

عاش نجيب الحداد في مصر واتخذها وطناً ثانياً له فشعر بشعورها وأحس بإحساسها وأجال قلمه في ميادين السياسة فكان الوطني الغيور والمبصر الحكيم والمرشد إلى سواء السبيل. وهذا مقال من مقالاته السياسية يندد فيه بالاحتلال قال :

لا نقصدُ بهذا العنوان سوى تقريرِ حقائقَ راهنة وسَرْدِ تواريخَ ثابتة نبيّن من ورائها أعمالَ هذه الدّولة وأحوالها وما تنوي من المقاصد والغـايات

---

(١) « منتخبات أمين الحداد » ص٢٣٤ (الطبعة الأولى) .

(٢) إن الشآميين الذين هاجروا إلى مصر لم يعيشوا غرباء فقد لقوا فيها أهلا بأهل وإخواناً بإخوان وإنما قست الغربة على أولئك الشآميين الذين نزحوا إلى بلاد الغرب وتوفاهم الله فيها بعيدين من أوطانهم وهذا أحدهم الشاعر الناثر رزق الله حسون الحلبي يموت بلندن فيتمثل عند موته بقول القائل :

قدر الله أن أموت غريباً   في بلاد أساق كرهاً إليها
وبقلبي مخبآت معان   نزلت آية الحجاب عليها

وقد نسب بعض الرواة هذين البيتين إليه « أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر » لقسطاكي الحمصي ص ١١

وما مرّ لها من السوابق والأعمال ليكون الماضي تبصرةً للمستقبل والسابق غنى للحاضر عن مزيد التأمّل والاستبصار متّبعين في كل ذلك جادّة[1] الصدق والصواب لا نميلُ مع غاية ولا نرمي إلى غرضٍ ولا نتعمّد مدحاً ولا نقصد إلى مذمّة ولا بغيةَ لنا إلا فائدة الذكرى ومنفعة العِبرة والتبصرة لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد[2] .

قلنا إن الإنجليز لا تقفُ في سبيلهم عَقَبَة ونحن نبيّنُ ذلك بالحجّة الثابتة والحوادث المقرّرة الماضية فنقول إن رجال الإنجليز احتلّوا الهند من سنين فلم تقف في سبيلهم عَقَبَة لأنهم لا يزالون فيها ثم احتلّوا جوانب إفريقيا فلم يعترضهم أحدٌ لأنّ دولة استعمارهم لا تزال تمتدُّ في أطرافها ثم نزلوا بعضَ جهاتِ آسيا وأمريكا ووسّعوا نطاقَ استعمارهم وأخذوا مَنْ هناك مِن الشعوب في غِمارِ[3] دولتهم وسطوةِ مُلْكهم ولم يَحُلْ دون تقدّمهم مانعٌ ولا مَنَعَ من نفوذِهم حائل ثم احتلّوا جبل طارق ولا يزال في قبضةِ أيديهم إلى الآن ثم أخذوا قبرصَ ومالطة وهم لم يبرحوا فيهما ولن يبرحوا حتى يأتيَ الله بأمرٍ من عنده . وأخيراً نزلوا مصرَ فاتحين أو مصلحين كما يقولون والعِبرةُ بالاحتلال لا بالأقوال ولم تقف في سبيلهم عَقَبَة سوى ما يسمعونه من اعتراضِ الدول وتردِّدُهُ الجرائد من معارضاتِ

---

(١) الجادة : معظم الطريق ووسطه جمعه جواد .

(٢) تضمين للآية الكريمة : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » سورة ق ٣٧

(٣) غمار جمع غمرة : شدة الشيء ومزدحمه .

فرنسا حيناً واحتجاجِ الباب العالي[١] أحياناً وأقوالِ بعض الخطباء آونةً[٢] مما درجت[٣] عليه السّنون[٤] ومرّتْ دونَهُ الأحقابُ[٥] وهو لا يزالُ في حيثُ كان بل لا يزالُ كما كان وبقي الإنجليزُ يحتلون البلادَ ويمدُّونَ كل يومٍ في إدارتها يداً ويختلقون من أنواع إصلاحها كلّ حينٍ فنوناً ولم تقف في سبيلهم عَقَبَة ولم يزلْ حاضرُ أمرهم مثلَ ماضيه واقفينَ فيه عندَ نهايةِ العملِ والنّاسُ من حولِهم عندَ حدِّ الكلامِ والأوهام إلى أن يخطرَ للدنيا خاطرٌ جديد أو تطرأ على الاحتلالِ طوارئُ فتعيدُ أوّلَه إلى آخره وتردّ عَجُزَهُ على صَدْرِه[٦] وترجعُ ما بعدَه إلى ما قبلَه وعسى أن يكونَ ذلك اليومُ قريباً فتنال مصر ما تتمنّاه والأمرُ يومئذ لله .

إذن فالإنجليزُ قومٌ لا تقفُ في سبيلهم عَقَبَة قولٌ أيّدناه بالبرهان وأثبتناهُ بالحجّة وصدقنا عليه بمرويّاتِ التاريخِ ومقرّراتِ الأحوالِ والأعمال وقد بقي أن نثبتَ قولَنا عنهم إنهم عَقَبَةٌ في كلِّ سبيل لتتمّ العبارةُ على جملتها ويصدقَ القولُ على وجهه ولا دليلَ إلا ما نرْويهِ

---

(١) الباب العالي : الأستانة .

(٢) الآونة : جمع آن وأوان : الوقت والحين .

(٣) درجت : مضت .

(٤) السنون جمع سنة . تجمع سنة جمع مؤنث سالماً فتقول سنوات وتلحق بجمع المذكر السالم فتقول : سنون وسنين .

(٥) الأحقاب جمع حقب : ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة أو السنون .

(٦) العجز : مؤخر الشيء أو الجسم . وعجز بيت الشعر : الشطر الثاني منه . والشطر الأول يسمى الصدر .

من صادقِ الأخبار وجليِّ الآثار ممّا هو في علمِ الجميع تردِّدُهُ الصحائف وتتلوه ألسنةُ المحدّثين وسطورُ الأسفار فنقول :

نازَلَ نابوليونُ الأوّلُ مصرَ ونزلَها في بدء هـذا القرن فأخرجَهُ الإنجليزُ منها وكانوا عَقَبَةً في سبيلِهِ ثم حارَب سوريا وافتتح أكثرَ مدائنِها فأخرجوه أيضاً وجلَوْهُ عن تلك الرّبوعِ وكانوا عقبةً في سبيلِهِ ثم قاتَلَ أوربّا ونازَلَ دُوَلَها وأخـذَ أكثرَها ثم تركها جميعاً وكان الإنجليزُ في كلِّ ذلك عقبةً في سبيله إلى أن أخذوهُ أخيراً وكانوا السّببَ في وفاتِهِ منفيًّا وحيداً في جزيرةٍ حقيرةٍ في آخرِ الدُّنيا بعـد أن كانت الأرضُ تضيقُ بجيشِهِ وكان ينزلُ منها في المقامِ الأوّلِ والمـكانِ الرّفيع ...(١)

٣ – نجيب الحداد الاجتماعى

ا – الأخلاق والعادات

القمــــار

كان الميسر قد انتشر في عهد المترجم له انتشاراً أشفق منه العقلاء على أخلاق الأمة أن تتدهور وتنحدر إلى الحضيض فنظم هذه القصيدة تلبية لاقتراح مجلة « البيان »(٢) واستجابة لعاطفة اجتماعية تختلج في صدره قال :

لكل نقيصةٍ في الناسِ عارُ ... وشَرُّ معايبِ المرء القمارُ

(١) « منتخبات نجيب الحداد » ص ١٤

(٢) مجلة « البيان » لمنشئيها الشيخ إبرهيم اليازجي والدكتور بشارة زلزل صدرت سنة واحدة ثم استقل الشيخ إبرهيم بمجلته « الضياء » .

هو الداءُ الذي لا بُرْءَ منهُ   وليس لذنبِ صاحبه اغتفارُ
تُشادُ لهُ المنازلُ شاهقاتٍ   وفي تشييدِ ساحتها الدّمارُ
منازلُ كم أُريقَ دمٌ عليها   وكلّ دمٍ أراقتهُ جُبارُ(١)
نصيبُ النازلينَ بها سهادٌ   فإفلاسٌ فيأسٌ فانتحارُ
قد اختصرُوا التّجارةَ من قريبٍ   فعُدْمٌ في الدقيقةِ أو يسارُ
وبئسَ العيشُ فقرٌ مستديمٌ   يعارضهُ يسارٌ مستعارُ
وبئسَ المالُ لا تحظى يمينٌ   بهِ حتى تسلّمهُ اليسارُ
يفرُّ من البنانِ فليسَ يبقى   لهم من إِثْره إلا اصفرارُ
كأنَّ الزئبقَ الرجراجَ فيهِ   يدورُ فلا يقرُّ لهُ قرارُ
كأنَّ وجوهَهُمْ نَدَماً وحزناً   كساها لونُ صفرتهِ النُّضارُ
فبَيْنا تبصرُ الوجناتِ ورداً   إذا هي في خسارتهمْ بَهارُ(٢)
كأنَّ المالَ بينهمُ نجومٌ   ورقعةَ لعْبِهمْ فَلَكٌ مُدارُ
فبعضُ نجومِهِ فيها سعودٌ   وبعضُ نجومِهِ فيها البَوارُ
تراهمْ حولَ بسطتِها قعوداً   يُدير عيونَهُمْ ورقٌ يُدارُ
عصائبُ لا يودُّ المرءُ فيها   أخاهُ ولا يراعي الجارَ جارُ(٣)
يلاحظُ بعضُهمْ بعضاً بعينٍ   يكادُ يضيءُ أسْوَدَها الشّرارُ
فتحسبُ أنَّ بين القوم ثأراً   ولا ثارٌ هناك ولا نفارُ

---

(١) الدم الجبار : الذي يذهب هدراً .

(٢) البهار : نبت طيب الرائحة زهره أصفر أكبر من زهر البابونج .

(٣) عصائب : جمع عصابة وهي الجماعة من الرجال أو الخيل أو الطير كقول النابغة وقد أشار بكلمة عصائب إلى جماعة الطير ثم الرجال :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدي بعصائب

ولكن جارتِ الأقدارُ فيهمْ ــــ ففي أبصارِهمْ منها ازورارُ(١)
كأنَّ عيونَهُمْ لمّا أُديرتْ ــــ فَراشٌ حائمٌ والمالُ نارُ
فهمْ لا يُبْصرونَ سواهُ شيئاً ــــ كساري الليلِ لاحَ لهُ مَنارُ
وهمْ لا يعطفونَ على خليلٍ ــــ وليسَ يشوقُ أنفسَهمْ مزارُ
وهمْ لا يذكرونَ قديمَ عهدٍ ــــ وليس لهمْ سوى الأمسِ اذّكارُ
يذكّرهمْ بما خسروهُ فيهِ ــــ وما كانوا عليهِ وكيفَ صارُوا
كرَبِّ الثأرِ أقبلَ يبتغيهِ ــــ فزيدَ عليهِ فوقَ الثارِ ثارُ
ترَى ألحاظَهُمْ فتخالُ فيهمْ ــــ خُمار طِلاً وليس بها خُمارُ(٢)
ولكنْ دارتِ الحسراتُ فيهمْ ــــ كما دارتْ بشارِبِها العُقارُ(٣)
فكمْ غضبُوا على الأيّامِ ظلماً ــــ وكم حنقُوا على الدنيا وثاروا
وكم تركوا النّساءَ تبيتُ تشكو ــــ وتسعِدُها الأُصَيْبِيَةُ الصّغارُ(٤)
تبيتُ على الطَّوَى ترجُو وتخشَى ــــ يؤرِّقُها السّهادُ والانتظارُ(٥)
فبئستْ عيشةُ الزّوجاتِ حزنٌ ــــ وتسهيدٌ وهجرٌ وافتقارُ
وبئستْ خَلّةُ(٦) الفتيانِ همٌّ ــــ وأتعابٌ وخسرانٌ وعارُ(٧)

---

(١) ازورار : مصدر ازورّ : عدل وانحرف .
(٢) الخمار : صداع الخمر .
(٣) العقار : الخمر .
(٤) الأصيبية : تصغير صبية وأصبية جمعي صبي .
(٥) الطوى : الجوع .
(٦) الخلة : الخصلة .
(٧) ديوان « تذكار الصبا » ص ٥٩-٦١

فتيان اليوم

ولنجيب الحداد في هذا الباب صيحات كثيرة في الشعر والنثر يقرع بها العصا لذي الحلم ويهيب بالفتيان أن يكونوا رجالا يعتمد عليهم الوطن وتحليهم مكارم الأخلاق وقد كانت لوثة المدنية الغربية الزائفة قد تسربت إلى بعض النفوس الحائرة الخاثرة . قال :

ليست المرأةُ لدى مرآتِها ولا الطفلةُ مع لعبتِها ولا الفقيرُ في ثوبه الجديد ولا الدّنيء في نعمتِهِ الحديثة ولا الخليلُ في تقطيعه أبياتَ العَروض ولا أرخميدس عند اكتشافه الثّقْلَ النَّوْعيّ ولا الحريريّ عند نظم مقاماته بأغربَ هيئةً وأضحكَ حركاتٍ من شبّانِ هذه الأيّام لدى امرأةٍ يقابلونَها في الطريق أو يجلسونَ إزاءها في نادٍ عامّ أو تجمعُهُمْ لديها مركبةٌ كهربائيَّة أو سكةُ حديد . ومن شاء أن يضحكَ على خفّةِ الشبّانِ ويعرفَ مقاديرَ العقولِ ويزنَ أثقالَ الأفهام ويعرفَ حقائقَ النّفوسِ الصغيرةِ إذا داخلها التمدّنُ الجديدُ دفعةً واحدةً فأذهلها وأعماها عن واجباتِ الرجولية وحقوقِ الشبيبة والفتاء[1] فليتأمَّلْ في فتيانِ عصرِنا قليلاً ويتبعْ حركاتِهم يوميًّا ويتنبَّهْ إلى مجالسهم وأحاديثهم في محفلٍ جامعٍ أو مركبةٍ عموميّة فهناك يرى من غرائبِ الحركاتِ ما يبعثُ الضَّحِكَ والأسف ويظهرُ له من خفّةِ العقول في الفتيانِ ما يشتهي لأجله الشيبَ والخَرَفَ .

ذلك أن الفتى من فتيانِ عصرِنا ينهضُ من فراشِهِ ولا نهضةَ الحسناء من خِدْرها[2] ويقفُ لدى مرآتِهِ ولا وقفةَ بنتِ الهوى أمامَ عاشِقها

(١) الفتاء : الشباب والحداثة .

(٢) الخدر : ما يفرد للمرأة من سكن .

فلا يزالُ ينظّمُ في ثيابه ويسوّي من مفارقِ شعرِهِ وغرّةِ جبينه وربطةِ قميصِه وتدهينِ ملابسِهِ وتفتيلِ شاربيْهِ ما لو صَرَفَ بعضَهُ على الصَّلاةِ لدخل الجنَّةَ بثيابه أو أنفقَ شيئاً منه على العلمِ لبَهَرَ الدُّنيا بمعارفه وآدابهِ حتى إذا تجلّتْ له محاسنُ وجْهِهِ وقنعَ من صِدْقِ مرآتِه بتمامِ بهائِهِ وجمالِهِ وزيّنتْ له عيناه أنَّهُ لم يخلق اللهُ مثلَهُ بين أترابِه[1] خرج يتخطّرُ في الشوارعِ وهو يرنو إلى النِّساء فيحسبُ أنَّهُ يوسف الصدّيق يقطّعنَ عليه الأيدي والأكباد[2] وهو لو نظرَ إلى نفسِهِ وتمايُلِهِ نظرةَ العقلِ لأطرقَ بنفسه خجلاً ولشتَمَ نفسَهُ أو كاد . . .

مهلاً فتيانَنا الأدباء النافخين[3] روائحَ وعطوراً . المقلدين النِّساء زينةً وزخرفةً وزهوراً . والخاطرينَ نُقَطاً سوداءَ في سماءِ المدنيّة وهم يحسبونَ أنفسهم بدورًا . والمتقرّبين إلى الغاداتِ بمثلِ هذه السفاسفِ الدّنيا فما يزددنَ إلا نفوراً . ما هكذا تستمالُ الغادةُ الحسناء . ولا من هذا السبيلِ يتوصَّلُ الفتى إلى أفئدةِ النساء . إن الفتى خُلِقَ ليزينَهُ الأدبُ لا ليزينه الذّهَب . ووُجِدَ ليحلِّيَهُ الكمالُ لا ليحلّيَهُ الدلال . وأبْدَعَهُ اللهُ ليكونَ رجلاً بين النّساء لا امرأةً بين الرّجال . إنّ المرأةَ لا تحبُّ من الرجل جمالَهُ إذا كان ناقصَ العقل . ولا تنفرُ من نقْصِ محاسنِهِ إذا كان كاملَ الفضل . وإن جمالَ العقل هو الجمالُ الأعلى وجميع محاسن الوجه دونه .

(١) الأتراب : جمع ترب : الصديق أو من ولد معك .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة في سورة يوسف : « فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . »

(٣) نفح الطيب : انتشرت رائحته .

وسبحان من جعل الجسمَ تمثالاً عاطلاً[١] وجعل العقلَ له زينه[٢] .

السيدات في المركبات

أخذت الحضارة الغربية تفعل فعلها في بلاد الشرق وأخذ السفور ينتشر بين النساء ويضفي عليهن شيئاً من الاستقلال والحرية فأصبحن بمصر في عهد الحداد يخرجن سافرات ويركبن المركبات متنزهات أو لقضاء الحاجات فقال يصفهن في المركبات :

مَن بدورٌ تسيرُ في المركباتِ   ومن القبَّعاتِ في هالاتِ[٣]
كلّلتها أزاهرُ الصّنعِ من نبـــتِ الأيادي لا من أيادي النباتِ
أقحوانٌ يفاخرُ الثّغرَ في الحُسْـــنِ وردٌ يفاخرُ الوَجَناتِ[٤]
زَهَراتٌ ما حاكَها ابنُ سحابٍ   في رُبى الرّوضِ بل بنانُ البناتِ
قد عداها طيبُ الأزاهرِ لكنْ   قد عدا الزهرَ ما بِها من ثباتِ
إن يكنْ فاتَها الأريجُ فقد عوّ   ضَ عنهُ روائح الغانياتِ

---

(١) العاطل : الخالي . يقال امرأة عاطلة أي ليس عليها حلي . وقد جمع الطغرائي بين العطل والحلي في مطلع قصيدته المشهورة بلامية العجم حيث قال :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل   وحلية الفضل زانتني لدى العطل

أما قصيدة الشنفرى المشهورة بلامية العرب فمطلعها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم   فإني إلى قوم سواكم لأميل

على أن معنى العطل والحلي قد أبدع فيه الشريف الرضي في القصيدة التي أرسلها إلى الإمام القادر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدر وقال فيها :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا   في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت   أبداً كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني   أنا عاطل منها وأنت مطوق

(٢) «منتخبات نجيب الحداد» ص ١١٦ — ١٢٠

(٣) هالات جمع هالة : دارة القمر .

(٤) أقحوان : نبات له زهر أبيض واحدته أقحوانة .

أو يكن فاتَها رياضُ جنانٍ فهْيَ فوقَ الرؤوسِ في جنّاتِ
أو عدَتْها الغصونُ فهْيَ على مثْـــلِ غصونِ الرُّبَى من القاماتِ
كلُّ هيفاءَ تفضحُ البدرَ في الُحسْـــنِ وظبيَ الفلاةِ في اللّفتاتِ (١)
سائراتٌ جوالسٌ فهْي لم تعْـــجلْ ولكنَّها على عجلاتِ (٢)
مفرداتُ الجمالِ تنطلقُ الخيـــلُ فُرادَى بها ومُزدَوِجاتِ
وكأنَّ الجيادَ تشعرُ بالحسْـــنِ فتجري بهنَّ مفتخراتِ
قد درَتْ أنَّها تجرُّ بدوراً فتبارَتْ كالأنجمِ السائراتِ
مسرعات ترى الدواليبَ من سُرْ عتِهَا في مرورها ثابتاتِ
ويدورُ النّسيمُ في الرِّيْشِ فوقَ الـــرُّوسِ حتى تخالها طائراتِ
وقلوبُ العشّاقِ تتّبعُ الغِيـــدَ تباري أفراسَها الجارياتِ
وتحومُ الأبصارُ تنتهبُ الحسْـــنَ انتهاباً من أعينٍ ناهباتِ
وتضلُّ العيونُ بين جمالٍ وجمالٍ فتغتدي حائراتِ
صاحِ هذي هوادجُ الحضَرِ اليو مَ فخلِّ الهوادجَ البادياتِ (٣)
ودَعِ النّوق والفـلاةَ فلا نو قَ بأحيائِنـا ولا فلواتِ
ودعِ العِيسَ والحـداءَ لقومٍ ألِفوا عيسَهُمْ وزجرَ الحـــداةِ
تلك حالٌ مرّتْ قديماً وذي حا لٌ وسبحانَ مُبْدِلِ الحالاتِ
إنّما عِيسُنا سوابقُ خيـــلٍ ولدينـا هوادجُ المركباتِ
فهناكَ الجمـالُ تأخذُهُ العَيْـــنُ جليًّا ويأخذُ المهجاتِ

---

(١) هيفاء : مؤنث أهيف وهو الرقيق الخصر .
(٢) جوالس : جمع جالسة .
(٣) الهوادج : جمع هودج : محمل له قبة كانت تركب فيه النساء .

وهناكَ الدُّمى تباحُ للحظِ الـــطَّرْفِ لكنَّها من المُحْصَناتِ[١]
حسناتُ العصرِ الذي كلُّهُ نو رٌ يُجَلّي غياهبَ الظلماتِ
إنْ يَسُؤْنا الماضي فقد سرَّ آتٍ فاغتفرْ ما مضى بما هو آتِ[٢]

ب — العدالة الاجتماعية

الفقير والغني

كان نجيب الحداد رجلا رقيق العاطفة يرى البؤس فيحنو على البائسين وكان مصلحاً اجتماعياً وقف قلمه على الدعوة للعدالة الاجتماعية بين الناس وله في ذلك الفصول الضافية وهذا المقال منها :

قل للغنيِّ المترفِ السَّارحِ في مراتعِ نعمائِه . السّاحبِ ذيلَ خُيَلائه على بني الإنسانِ نظرائِه . المتقلِّبِ في أعطافِ النّعمةِ والهناء لا يحسُّ بما في الدّهرِ من شقائِه . الرّاكبِ الخيلَ الجيادَ تجري به عَنَقاً[٣] . السّابحِ في بحار الغنى والتّرفِ يكاد يشكو فيها غرَقاً . النائمِ على حشايا الحريرِ والدّمَقسِ[٤] النّاعِم . المتنعّم بما لديه من ملذّاتِ الحياةِ بين المشاربِ والمطاعِم . قفْ هذا النّظَرَ الذّاهبَ في السّماء قليلًا . ومِلْ بتلكَ النّعمةِ التي تجرّ من فضولِ أثوابِها ذيولا . على فقيرٍ يسأل منك رحمةً ويسترحِمُ منك سولا[٥] . ولا تمشِ في الأرض مَرحاً إنّكَ لن تخرِقَ الأرضَ ولن

---

(١) الطرف : العين . المحصنات : العفيفات .
(٢) ديوان « تذكار الصبا » ص ٤٠ – ٤١
(٣) عنقاً : سريعاً .
(٤) الدمقس : الحرير الأبيض .
(٥) السول والسؤل : ما يسأل .

تبلُغَ الجبالَ طولا[١] . وانظُرْ إلى حالِ التعيسِ[٢] القاعدِ به العُدْمُ في مرابعِ شقائه . السّاحبِ الدَّهرُ عليه ذيلَ فقرهِ وعَفائه[٣] . المتقلّبِ في أعطافِ المِحَنِ والبؤسِ لا يعلمُ بما يشعرُ به الغنيُّ من هنائِه . الرّاكبِ رجليهِ يقودُهُ زمامُ الحاجة خَبَباً . الغارقِ في تيّارِ العوَزِ لا يكادُ يرجو إلى خلاصِهِ سَبَباً . النّائم على بساطِ الأرضِ يلتحفُ مشقّةً وتَعَباً . الضعيفِ عن طلبِ رزقِهِ بمساعيهِ والعاجزِ عن أن يقولَ واحَرَبا[٤] . ثم انظُرْ إلى مَنْ حولَهُ من صبيةٍ صغارٍ يتضاغون[٥] جوعاً . ونساء قاصراتٍ يمنعهنَّ الحياء ذلاًّ ويمنعهنَّ الذلُّ هجوعاً . وما بينَ ذلك من أصلٍ كريمٍ تقضي عليه الحاجةُ تقدّمًا وينازِعُهُ الخجلُ رجوعاً . فليسَ الفقيرُ مَنْ يسألُ على قارعةِ الطريق . ولا مَنْ يتعارَجُ رغبةً في الفرَج[٦] من الضّيقِ . ولا من يبسطُ كفَّهُ للمسئلة[٧] فينالُ الحاجةَ من كفِّ الشفيق . بل الفقيرُ من تقدّم لنا وصفُ حالِه يجهله الغنيُّ الغريبُ ويقصرُ عن إسعافه المعوز الصديق .

فما ضرَّ الأغنياءَ الذين ينفقونَ أموالَهُمْ على سبلٍ لا تذكر . وفي مذاهبَ

---

(١) «ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا .» آية من آيات القرآن الكريم في سورة الإسراء ضمن بها كلامه .

(٢) المسموع عن العرب : رجل تاعس وتعس (انظر لغة الجرائد لليازجي)

(٣) العفاء : الهلاك .

(٤) واحربا : أصله واحرباه وحذف هاء السكت للسجع . جملة يقولها من يدعو بالويل .

(٥) يتضاغون : يتضورون جوعاً .

(٦) إشارة إلى قول القائل :

تعارجت لا رغبة في العرج ولكن لأقرع باب الفرج

(٧) المسئلة : السؤل والطلب .

لا تُشْكر . وفي أمورٍ يحتاجون من بعدها إلى الإسعاف . وأما كنَّ يعيشون فيها رغدَ أيامٍ ثم يتمنَّوْنَ على آثارها الكَفاف[١] . لو صرفوا بعضَ ذلك المالِ في تأليفِ جمعيّاتٍ خيريّةٍ ينفقونَ عليها فَضْلَةَ المال . ووقفوا بعضَ حنينِ قلوبهم إلى غيرِ ما تحنّ إليه من صبابة المحاسنِ والجمال . وكَفَوْا تلك الأُسَرَ النازلَ بها الدّهرُ شَرَّ سؤالِها وأراحوا أنفسَهُمْ من ثقلِ السؤال[٢] . . .

الخادم والمخدوم

وعلى مثل تلك النغمة يضرب في هذا المقال ويصحح الأوضاع بين الخادم والمخدوم أو بين العامل وصاحب العمل كما نقول اليوم :

متى ترَى الرّجلَ مطرِقاً مهموماً يفكّرُ في مستقبَلِ أيّامِه . وحزيناً كئيباً يحسبُ لغَدِهِ قبلَ عامِه . ويحرصُ على صحّتِهِ كما يحرصُ على رأسِ مالهِ . إذ لا مالَ له سواها وهو مع ذلك يُنْفِقُها عَرَقاً يسيلُ من ثنايا الجبينِ العابِسِ ونوراً ينبعثُ من حَدَقَةِ تلك العَيْنِ الكليلة وفكراً تقسّم بين عملهِ المندوبِ إليه بدافعِ المعيشة والاحتياج وبين عيلتهِ[٣] المدفوعِ إليها بداعي الحنوّ والتّسخير . فقلْ هذا هو الخادمُ ربُّ البيتِ والأولاد . يعملُ لطعامِ اليومِ من شُغْلِ اليوم ويسألُ السَّلامَةَ للغد ليعملَ في الغدِ ولا أملَ له من هذه الحياةِ الدّنيا سوى مخدومٍ أوَى إليه وعافيةٍ يستعينُ بها عليه

---

(١) الكفاف : ما كفى وأغنى .

(٢) « منتخبات نجيب الحداد » ص ٩ – ١١

(٣) عيلة الرجل : أهل بيته الذين يعولهم .

وصبيةٍ صِغارٍ يرجو أن يقوى على قُوتِهِمْ وسَدِّ حاجتهمْ قبلَ أن يرجوَ لهم بلوغَ الشّباب ويؤمّلُ منهم النّفْعَ والإسعاف .

ومتى رأيتَ الرّجلَ يمشي في الأرضِ مَرَحاً ويختالُ في مشيتِهِ فرحاً ويرفعُ أبصارَهُ إلى العلاء كِبْراً(١) قبل أن يرفعَها للهِ شكراً ويدخلُ إلى حانُوتِهِ آمراً ناهياً يسخطُ على خادمٍ لا يرضيه أو يتظاهرُ بالغضبِ عليه لكي لا يطمعَ فيه أو يدّعي القلّةَ والخسرانَ لكي لا يزيدَ في راتبِهِ ما يكفيه . فقل هذا هو المخدومُ — أو البعضُ من أمثالِه — يحاسبُ على الدّرهم ويخزنُ في الكيس ويعدُّ مؤونةَ الدهر ويجمعُ لآخر الأبد . وقد أنساهُ الغِنى أنَّ في الأرضِ موتاً دائراً وقضاءً محتوماً وأن وراءَهُ خادماً عاملاً لا أملَ له بعد الله إلا به ولا معوَّلَ إلا عليه ولا رجاءَ إلا عنده ولا طمعَ بمستقبلِ العمرِ والاستعانة على شدائد الدّهر إلا فيه وفي مكارمِ أخلاقِهِ وقد لا يكون من أصحابِ تلك الأخلاقِ كما يكونُ خادمُهُ من أصحابِ تلك الآمال .

نقولُ ذلك ولا نقصدُ به كلَّ مخدومٍ على الإطلاق فإن منهم الكريمَ تفيضُ نعمةُ اللهِ عليه فيفيضُها على مَنْ حواليه وتنبسطُ يدُ الخير لإسعافِهِ فيسعفُ بها من يعيشونَ في أكنافه(٢) وصاحب الشّفقة لاينامُ ويتركُ خادِمَهُ ساهراً ولا يقرُّ له فكرٌ ما دام فكرُ خادمِهِ حائراً ولا يشعرُ أنّهُ وفى حقّ مولاه من الشّكر إلا إذا وفى خادمَهُ ما لَهُ من الحقّ والأجر

---

(١) الكبر : التجبر .

(٢) الأكناف : جمع كنف : الجانب .

وأولئك قومٌ يحقُّ لهم فرض الثّناء ولهم نصيبهُمْ في الحياةِ الدنيا ولا يعدمونَ أجرهم في السّماء. ولكنا نريدُ بعضَ المخدومين الذين يحسبونَ الخادمَ عبداً ويجدونَ العاملَ رقيقَ الحاشية فيظنُّونَهُ رقيقًا ثم يذهبُ بهم الوهمُ إلى أنه متاعٌ ساقطٌ في أيديهم وشيءٌ صار إلى ملكهم وآلةٌ تُهانُ في سبيل كرامتهمْ وتعمل من أجل راحتهِمْ وتذلّ درجاتٍ لارتفاع معزّتهم. وهلم جرًّا مما يضيق دونهُ القرطاسُ وتتلهَّبُ من حدّةِ ذكره الصدور والأنفاس...[1]

ج — نهضة المرأة

المرأة والعلم

لنجيب الحداد في ميدان المرأة صولات وجولات فهو الداعي إلى تحريرها والمهيب بالرجل إلى تعليمها وتهذيبها والمنافح دون حقوقها والباذل لها النصح بأن تكون في الشرق المرأة الفاضلة التي تكلم عنها سليمان الحكيم وهذا مقال ينادي فيه بوجوب تعليم المرأة قال :

... وإذ قد تبيّن ذلك ووجد كلُّ امرئٍ من نفسه حاجةَ المشاركة لصديقه في فهمِ ووجداناتِه فقد تبيّن ما لتعليم المرأةِ من الوجوبِ في هذا العصر الذي اتسعت مداركُ أهلِهِ وانتشرتْ المعارفُ والعلومُ فيه حتى قلَّ أن يخلوَ من بعضها صدر أو أن لا يكون لها في كتابِ كلِّ فؤادٍ صفحةٌ أو سطر ولستُ أقصدُ بذلك أن تتعلَّم المرأةُ حتى تكونَ عالمةً بل أن تعرفَ قدرَ العالم فإن في معرفةِ قدْرِ العلماء ومنزلةِ عقولهم لذّةً هي جانبٌ من لذّةِ العلم ونصيبٌ من حلاوةِ الإدراكِ والفهم

(١) « منتخبات نجيب الحداد » ص ١١ – ١٣

ولا أن تزاولَ الكتابةَ والإنشاءَ[١] حتى تكونَ كاتبة بل أن تفهمَ معاني الكتابة والإنشاء ويكونَ لها في مخيّلتِها تأثيرٌ تشاركُ فيه سواها من العارفين. ولا أن تكونَ مُجيدةً في كلّ فنّ تصرف فيه أيامَها وتقفُ على تحصيلِهِ جدَّها واجتهادَها بل أن تكونَ من كلِّ فنٍّ على طرفٍ وخبرة حتى إذا عرضَ لها حديثٌ منه عرفتْ ما تقولُ عنه أو ما يقالُ لديها فيه لا تزلّفاً لِعشْرةِ الناس وترشّحاً لصدورِ المجالسِ بل إرضاءً لزوجِها ومسرّةً لنفسِها ومشاركةً لشريكها في حياتِها واستدامةً للصَّداقةِ والودِّ في نفسين جمعَ بينهما الودادُ والغرام ثم أيّدتْ صلاتهما القرائحُ والأفهام. وما أبدعَ الغادةَ يزينُها العلمُ والكمال كما يزينُ قوامَها الاعتدالُ والجمال. وأن تكونَ فصيحةَ النّطقِ بألفاظِها كما هي فصيحةُ السكوتِ بألحاظِها. حتى تكونَ هي الحسناء من جميعِ جهاتِها ويكونَ الرجلُ قرينَ محاسنِها كما هو قرينُ صفاتِها[٢].

---

(١) كان الحداد من أنصار تعليم المرأة لتكون متعلمة لا متحذلقة. وأين هذا من قول أبي العلاء:

علموهن الغزل والنسج والرد ن وخلوا كتابة وقراءه

(٢) « منتخبات نجيب الحداد » ص ١٣٩ – ١٤٠

د — الحوادث والظواهر

سكة الحديد

مد سكك الحديد بمصر حدث عظيم ظاهر من حوادث النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أرض الكنانة فكيف لا يسجله الشعر. لقد سجله نجيب الحداد في قصيدتين وإنما آثرنا نشر هذه القصيدة لأنها اقترحتها عليه الحكومة المصرية لترسم على محطة القاهرة الجديدة وقد نسبت خطأً إلى مصطفى نجيب في بعض كتب المحفوظات وهي هذه :

يا حسنَ عصرٍ بعبّاس العُلى ابْتَسَما   حتّى الحديد غدا ثغراً له وفما
طرائقٌ في ضواحي القطرِ تبلغُنا   أقصى البلادِ ولم ننقلْ بها قَدَما
مصرٌ كصفحةِ قرطاسٍ بترَبَتِها   غدا القطارُ عليها الخطَّ والقَلَما
أرضٌ بها كان خصبُ النيلِ منتثراً   حتى أتاها قطارُ النارِ فانتظما
لنا غنًى عن قطارِ السُّحْبِ منسجماً   ولا غنىً عن قطارِ النّارِ مضطرِما
يجري بها الرّزقُ في جسمِ البلادِ كما   يجري دمٌ في عروقِ الجسمِ منتظِما
محطّةٌ هيَ قلبٌ والخطوطُ بدتْ   مثلَ الشّرايينِ فيها والقطارُ دما
معَ السّلامةِ يا من سارَ مرتحِلاً   عنّا وأهلاً وسهلاً بالذي قَدِما[1]

احتراق سوق الشفقة

أقيمت بباريس سنة ١٨٩٧ سوق للخير والإحسان وشاء القدر القاسي أن تندلع ألسنة النار في مباني السوق وكانت من خشب فتلتهمها في نحو عشرين دقيقة وتلتهم معها نحو مئتي نفس من النفوس الشريفة الخيرة فكان لتلك الفاجعة رنة حزن وأسى في جميع البلاد هزت عاطفة نجيب الحداد فرثى الضحايا بهذه القصيدة :

أيُّ رُزْءٍ أجرى الدُّموعَ دِماءَ   وأذابَ القلوبَ والأحشاءَ

---

(١) ديوان « تذكار الصبا » ص ٥٩

وأسالَ النفوسَ حزناً وأذْكى الـصَّدْرَ ناراً واستنزفَ العينَ ماءَ(١)

أيُّ خَطْبٍ أصابَ باريسَ أُمَّ الـمُدْنِ بنتَ التمدّنِ الزّهْراءَ

فجعةٌ أكمدتْ ضُحاها وقد خـصّتْ بَنيها وعمَّتِ الغُرَباءَ

ليس بِدْعٌ في خَطْبِ باريسَ أنْ تشـملَ آثارُ حزنِهِ الدُّنياءَ(٢)

هيَ قلبُ الدُّنيا أُصيبَ بسهمٍ فأصابتْ آلامُهُ الأعضاءَ

وهْيَ أُمُّ الآدابِ أثْكلها الدَّهْـرُ فأبكتْ بوجْدِها الأبناءَ

قد دهاها مصابُ سادومَ لكنْ خَصَّ من بينِ قومِها الأبرياءَ(٣)

فهْيَ في الحزنِ مثلُ راحيلَ إذْ تبـكي بَنِيها ولا تريدُ عزاءَ(٤)

أَصْلَتِ الكهرباءَ فيها لهيباً قد كرِهْنا لأجلِهِ الكهرباءَ

ورَماها نورُ الضّياءِ بنارٍ أظلمَتْها فما تُلاقي الضّياءَ

---

(١) أذكى : أوقد .

(٢) الدنياء : الدنيا . وكريه في الشعر مد المقصور وإن استعمله بعض كبار شعراء العرب من مثل أبي نواس القائل :

ما زال يمطل من ينتاب حانتها حتى أتتني وكانت ذخر موتائي
ونحن بين بساتين فتنفحنا ريح البنفسج لا نشر الخزاماء
ولائم لامني جهلا فقلت له إني وعيشك مشغوف بمولائي

أو مثل أبي تمام حيث يقول في مدح محمد بن خالد بن زيد بن مزيد :

وإذا الكريهة شب نار وطيسها ثم اصطلى الأقصى من الأدناء
أرعبت صعب قيادها بمهند وتركتها كالرعلة العمياء

الأدناء : الأدنى . والرعلة : النعامة .

(٣) سادوم أو سدوم وكذلك عمورة مدينتان من مدن العهد القديم أمعن أهلهما في الفحش والمعاصي فأمطر الرب عليهما كبريتاً وناراً فدمرهما وأباد أهلهما ولم ينج منهم بأمر الرب إلا لوط وابنتاه .

(٤) راحيل : كلمة عبرانية معناها الشاة وفي العهد القديم اسم البنت الصغرى للابان وزوجة يعقوب ولدت له يوسف الصديق وبنيامين وماتت عند ولادتها بنيامين فدفنها يعقوب

في مكانٍ أنشي لدفعِ بلاء عن فقيرٍ فكان فيه بلاءُ(١)
سوقُ برٍّ تباعُ فيها اللُّهَى بَيْــعاً ويُشرَى الثوابُ فيها شراءُ(٢)
زيّنتْها بيضُ الأيادي وأيدي الــبيضِ من محسنٍ ومن حسناءُ(٣)
أنفُسٌ تبتغي السَّماءَ فما أمــسينَ إلّا وقد بلغنَ السَّماءَ
أدركتْ ما تروم من جنّةِ الخلْـدِ ولكنْ كان الطريقُ صِلاءُ(٤)
مَنْ رأى قبلَها جحيماً يؤدّي لنعيمٍ أبناءَهُ الشّهداءَ
أو رأى محسناً يجودُ على النّا سِ فيلقى نارَ الحريقِ جزاءَ
أتُرَى كان ذاكَ مَطْهَرَ من ما توا فيمحو عن النُّفُوسِ الخطاءَ(٥)
أمْ هُوَ الدّهْرُ لا يزالُ مسيئاً لكريمٍ ومُكرِماً مَنْ أساءَ(٦)

بالرامة قرب بيت لحم . وعندما يصف إرميا النبي جزع قبيلة بنيامين ونكبتها في أسرها يطلق عليها اسم راحيل ويقول : « هكذا قال الرب صوت سمع بالرامة ندب وبكاء مر راحيل تبكي على بنيها وقد أبت أن تتعزى عن بنيها لأنهم ليسوا في الوجود . » (نبوءة إرميا ٣١ – ١٥) فذهب اسم راحيل مثلا في الجزع وقلة العزاء .

(١) أنشي : مخفف أنشئ

(٢) اللهى : جمع لهوة وهي العطية . واللها : جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم . ومن الأمثال : اللهى تفتح اللها .

(٣) بيض الأيادي كناية عن الإحسان . وأيدي البيض كناية عن الحسان .

(٤) الصلاء : مصدر صلي . يقال صلي النار وبها : قاسى حرها أو احترق بها .

(٥) المطهر عند المسيحيين : مكان تطهر أنفس الأبرار فيه بعد الموت بعذاب له أجل محدود .

(٦) ديوان « تذكار الصبا » ص ٢٠ – ٢١

٤ ـ نجيب الحداد الأديب

ا ـ أدب البحث

مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي

عقد نجيب الحداد ثلاث مقالات في هذا الموضوع نشرت تباعاً في مجلة « البيان » لمنشئيها الشيخ إبرهيم اليازجي والدكتور بشارة زلزل استهلها بالكلام على الشعر في الشرق والغرب منذ أبعد الأزمنة إلى أيام كتابة هذا البحث ثم انتقل إلى المقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي من حيث اللفظ والمعنى . وهذا الذي ننشره هو بعض القسم الأخير من المقال الثالث قال :

. . . ومما فاق الإفرنج فيه في مقام الشعر وانفردوا به دوننا نظمُ الروايات التمثيلية واعتدادها من أوّلِ أبوابِ الشعر وأسمى درجاته وأشدّها دلالةً على براعةِ الشاعرِ وحسنِ اختراعه وهم مصيبون في هذا الاعتقاد كلَّ الإصابة لأن في نظمِ الرواية الشعريّةِ من الدلالةِ على الفضلِ والإبداعِ أكثر مما في نظم الديوان من القصائد والمقطعات إذ هي تقتضي حسنَ الاختراع في تأليفِ حكايتِها وبراعةَ النظم في وضعِ أبياتِها ولطفَ التصوّرِ في بيانِ شعائرِ ممثّليها واختلافِ حالاتهم ودقّةَ النظر في تبويبِ فصولها وتوثيقِ عقدتِها ووصلِ بعضها ببعض مما يستلزمُ رويّةً طويلةً وعارضةً شديدةً وقدرةً فائقةً في التصوّر والنظم والتأليف على غير ما تقتضيه القصائدُ والمقاطعُ المستقلّةَ التي يقصد بها الناظم غرضاً واحداً فيأتي به في أبياتٍ معدودة لا يضطرُّ فيها إلى عقْدِ حكايةٍ ولا إلى تمثيلِ عواطفَ

متعدّدةٍ ولا إلى إقامةِ نفسه في موقفِ كلّ شخصٍ من أشخاصِ الرواية يتكلّمُ بلسانهِ وينطقُ عن شعورِهِ ويضعُ في دوره التمثيلي ما كان ينبغي أن يقولهُ صاحبُ الدور الأصيل . وقد انتقلَ هذا الفنّ إلينا في هذه الأيام واشتغلَ به جماعةٌ منّا نظموا فيه الرواياتِ الشعريّةَ وأخصّهم المرحومُ المأسوفُ عليه الشيخ خليل اليازجي في روايته « المروءة والوفاء » إلا أننا لم نبلغ فيه مبلغَ الإفرنجِ بعدُ ولا وصلنا إلى ماوصلوا إليه من درجةِ كمالهِ وإتقانه .

ومن الفرق بيننا وبينهم في نظمِ الشّعرِ أننا نفوقُهُمْ في وصف الشيء وهم يفوقوننا في وصفِ الحالة أي أننا إذا وصفنا الأسدَ أو الفرسَ أو القصرَ أو الفتى الجميلَ أو الغادةَ الحسناء أتينا في ذلك بأحسنَ مما يأتونَ به وتوسَّعْنا فيه توسُّعاً لا يقدرون هم على الإتيانِ بمثله . وإنهم إذا وصفوا حالةً من قتالِ رجلين أو معركةِ جيشين أو مقابلةِ محبَّين أو غرقِ سفينةٍ أو مصابِ قومٍ جاءوا في ذلك بأحسنَ مما نجيء به وتوسَّعُوا فيه بما لا نقدرُ أن نسبقهم إليه . ومثال ذلك أن المتنبي وصفَ الأسدَ بما لا يقدرُ إفرنجيٌّ على وصفه بمثله وهيكو وصفَ معركةَ واترلو بما لا يقدرُ شاعرٌ عربيٌّ على الإتيانِ بنظيره فهم بذلك أقدرُ على تصويرِ الوقائعِ ونحن أقدرُ على تصويرِ الأعيان لأننا إذا وصفنا الشيء بلغنا من بيانِ صفاتهِ إلى أدقِّها وأخفاها وتوصَّلْنا من إدراك معانيهِ إلى أصغرها وأدناها حتى لا نبقي منه باقيةً ولا تفوتنا منه حقيقةُ وصف وهم إذا وصفوا حالةً أو موقفاً توصَّلوا إلى أخفى دخائلِهِ وأبانوا عن أدقّ خفاياه وبسطوا لعينِ الفكر ما لاتكادُ تبصرُهُ عينُ الحسِّ من غوامضِهِ وسرائره وذلك لأنهم يتبعون وجدانات النفس إلى أقصاها فلا يفوتون منها جليلاً ولا دقيقاً وهي المزيّةُ التي يعتبرون الشاعر بها

ونحن نشير إلى تلك الشعائر إشارةَ إجمال ونترك إلى القارئ تمامَ التصوُّر والتفصيل . . . (١)

ب – أدب المقالة

قدر لنجيب الحداد أن يبث أدبه في الصحف والمجلات فيعد في النفر الذين خلعوا على أدب المقالة ثوباً من الحسن والرواء وكل هذه النماذج التي اخترناها له كان قد نشرها في الصحف فقد كان الأدب عدة الصحافي في عصره فكل أديب صحافي ولا يعكس أما اليوم فقد أصبحت الصحافة فناً أو علماً قائماً برأسه والأدب بعض خصائصه . وكان السجع أو الترسل هو البرد القشيب الذي يجلو به مقالاته وكثيراً ما كان يفتتح المقال ساجعاً ثم يطرق لبابه ويفرغ منه مترسلا .

ج – أدب القصة

ألف نجيب الحداد وترجم كثيراً من القصص والتمثيليات فأما القصص المؤلفة فهو صاحب معانيها وأسلوبها وأما القصص المترجمة فكانت سجيته العربية تغلب عليه فيها فيحلي مواقفها بأمثال عربية وأبيات من الشعر العربي . وإليك بعض صفحات من رواية « الفرسان الثلاثة » قال :

ليلة الرقص

وفي اليوم الثاني شاع في المدينة خبرُ الليلة التي عزم الملك على إحيائها للرقص وما صارت الساعة السادسة حتى توافد المدعوون إلى قاعة الرقص أفواجاً يخطرون في مطارف السّندس والدّيباج والنساء يَمِسْنَ بالحلي والحلل كأغصان بان على كثبان :

من كل باهرة الجمال كدميةٍ　　من لؤلؤٍ قد صوّرت في عاجِ

(١) « مجلة البيان » : السنة الأولى . الجزء التاسع .

تمشي وترفل في الثياب كأنها   غصن ترنّح في نقاً رجراجِ

فلما كان نصف الليل علا الضجيج والتهليل لقدوم الملك ثم دخل الملك إلى القاعة تحفه السَّراةُ والأشراف وهو عابسُ الوجه مقطّب الحاجبين ولم يدرِ أحد لذلك سبباً وبعد دخول الملك بقليل عادت أصوات التهليل ترتفع ثم دخلت الملكة إلى القاعة وعلى وجهها سماتُ الكدر والتعب وكان الكردينال ينظر اليها نظرة الأسد إلى فريسته إذ لم ير عليها العقدَ[١] فأقامت الملكة برهةً تسلم على الحضور ثم دخل الملكُ من أحدِ أبواب القاعة وإلى جنبه الكردينال يكلّمهُ سرًّا وهو يتلوّن وأقبلَ حتى انتهى إلى الملكة فقال لها أين العقدُ يا حنّة ولماذا لا أراه عليك فنظرت الملكةُ حولَها فرأت الكردينال واقفاً وراءها وهو يتبسَّمُ تَبَسُّمَ الأبالسة فقالت: خشيتُ يا مولاي أن يسقطَ مني فيضيعَ بين هذه الجموع . قال: لقد أخطأ زعمُكِ فما أَهديتُكِ إيّاه إلا لتلبسيه . وكان الملك يتكلم وصوتُهُ يرجفُ من الغضبِ وكثر تحدُّثُ الناسِ بما يكون فقالت الملكة: إذا شاء مولاي فإني أُحضرهُ من اللوفر في الحال . قال نعم وأسرعي فإِنَّ ابتداءَ الرقصِ قد قربَ ثم تركها وانحاز إلى الرجالِ وانحازت هي إلى النّساء وكان الناسُ منتشرين في تلك القاعة مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ يتحدّثون بما كان

(١) كان هذا العقد قد أهداه الملك إلى زوجته وأهدته هي إلى الدوق دي بكنجهام على سبيل التذكار فنقل الجواسيس الخبر إلى الكردينال ريشليو وكان من أعداء الملكة فأوعز إلى إحدى محظياته بالسفر إلى لندن والتلطف بالدنو من الدوق بكنجهام وسرقة فصين من العقد فنفذت ما أمرها به ثم اقترح على الملك إحياء ليلة راقصة تتحلى فيها الملكة بالعقد فقبل الملك الاقتراح وأنهاه إلى الملكة بعد أن عين الكردينال موعد الليلة الراقصة فامتقع لون الملكة ولم تجد مفراً من الوعد بشهود الليلة متحلية بالعقد وقد أسقط في يدها وهي لاتدري كيف تتقي هذه الفضيحة.

وما سيكون وكلُّهُمْ في رَيْبٍ مما جرى فدنا الكردينال من الملك وأعطاه علبةً ففتحها وإذا فيها فصّانِ من ألماسٍ فقال الملك : ماهذا . قال : إنَّ عقدَ الملكة فيه اثنا عشر فصًّا وهذان منها فإذا لبستهْ الملكة فعدَّ فصوصَهُ وفيما الملك يفكّرُ في الأمر ولا يهتدي برزت الملكةُ بثيابِ الرّقصِ تشرقُ كالشمس بهجةً وجمالاً بما عليها من اللباس والجواهر وعليها العقد يلمعُ كنجومِ الثريّا(١) فسُرَّ الملكُ سروراً شديداً وعلا الاصفرارُ وجهَ الكردينال ثم بدأ الرقصُ ومالت القدودُ مَيْلَ الأغصان فكان الملكُ كلما دنا من الملكة ينظر إلى العقد فلا يتمكن من عَدِّ فصوصِهِ وبعد ساعةٍ من الرقص تقدَّمَ الملك إليها وقال لها : لقد وجبَ لكِ علينا الشّكرُ في امتثالِ أمرنا في العقدِ ولكن ساءنا أنه ناقصٌ فصَّيْنِ وهاهما فقالت الملكة : إذن يكونُ لنا أربعةَ عشرَ فصًّا فإن العقدَ كاملٌ يا مولاي . فنظر الملكُ إليه وعدَّهُ فوجدَهُ تامًّا فدعا بالكردينال وقال له : ما معنى ما قلت . قال : أحببتُ أن أُهديَ هذين الفصّين فلم أرَ لذلك سبيلاً غير هذا فشكرتهْ الملكةُ على ذلك وفي قلبِها منه حزازاتٌ وقالت : أراهما قد كلّفاك أكثرَ من كلِّ العقدِ ياسيدي الكردينال . وهي بين ذلك تتبسَّمُ تبسُّمَ العارفِ بالأمر حتى كاد الكردينال يموتُ حياءً منها ثم سلّمتْ وخرجتْ تريدُ القصر وكان الرقص قد انتهى وهمّ « دارتانيان »

(١) استطاعت الملكة أن تسترجع العقد من الدوق بكنجهام بمساعدة « درتنيان » وأصحابه الفرسان الثلاثة وقد لقوا في ذلك سيلا من الأخطار تغلبوا عليها كلها ولما رأى الدوق أن العقد ينقصه فصان استصنع على جناح السرعة بدلهما وبعث بالعقد إلى الملكة كاملا وكان الوسيط بين الملكة و « درتنيان » وصيفتها كنستنس حبيبة « درتنيان » .

بالخروج وإذا بيدٍ لمستْ كَتِفَهُ فالتفتَ فرأى امرأةً مقنَّعَةً فعرف من عينيها أنها حبيبتُهُ فتبعَها وسارتْ أمامه حتى بلغت القصرَ ودخلتْ فدخل وراءها حتى انتهتْ بهِ إلى غرفةٍ مظلمةٍ فأودعته فيها وخرجت من بابٍ آخرَ في جدارِها فأقام « دارتانيان » في تلك الغرفةِ برهةً ثم سمع صـوتاً يدنو منه ورأى يداً قد مُدَّتْ من فرجةِ الباب فعرف أنها يدُ الملـكة فركعَ وقبَّلَها فتركت في يدِهِ خاتماً وارتفعتْ ثم أُقفلَ البابُ فأظلمت الغرفةُ ظلاماً شـديداً فوضع « دارتانيان » الخاتَمَ في إصبعهِ وأقام ينتظرُ حتى فُتِحَ البابُ ودخلت عليه « كونستانس » فصاحَ لرؤيتها من الفرحِ فأسكتته وقالت: اخرجْ من حيثُ دخلتَ. قال : ومتى أراكِ . قالت : تعرفُ ذلك من رقعةٍ تجدُها في منزلكَ فاذهبْ الآن فخرج[1] .

د — أدب المسرح

حمدان

أسماء . عبد الرحمن (مختفياً) . شمس . ثم حمدان[2]

شمس لقد أفزعتني

حمدان إنَّ أمْرِي قد يقودُني إلى شأنٍ أفزع منه أنا أيضاً فاسمعي . إن الرجل الذي سيأخذُكِ أميرٌ غنيٌّ شريفٌ قادر ذو ألقابٍ يقدر أن يعيضَكِ عن شبابه

---

(١) « الفرسان الثلاثة » الجزء الأول . الفصل العشرون .

(٢) أسماء : خادمة شمس . عبد الرحمن : ملك الأندلس . شمس : ابنة الأمير الناصر . حمدان : الأمير الظافر بن المصطفى عاشق شمس ورئيس عصبة قطاع الطريق الثائرة .
والملك في هذا المشهد مختبىء في خزانة أدخلته فيها أسماء فقد جاء يفاجىء الفتى الذي قيل له إنه يزور شمساً في غسق الظلام .

الزائلِ بكثير من المال والحلي والحلل حتى تصبحي في مقام الملكات . أما أنا فرجلٌ فقيرٌ ليس لي إلا الغابات آوي إليها حافياً من يوم كنتُ صغيراً ولا حظَّ لي سوى الموتِ حتى لأراه بين السّيفِ والنطعِ يلاحظني من حيثما التفتُ ولعلي أكون ذا سعدٍ وشرفٍ ولكن ذلك بعيدٌ عني الآن . فأنا إذاً ليس لي من الدُّنيا سوى ما تَهَبُهُ لكلِّ حيٍّ من الهواء والماء والنور بل ليس لي من نصيب الناس سوى الهرب والوحدة والشَّقاء . فأيّنا تريدين . أتفضّلين الأمير أم تتبعينني .

شمس أسيرُ وإياكَ

حمدان
لا تُسْرِعِي فقولُكِ في الحال لا يُعْتَمَدْ(١)
لأنَّكِ أَحبَبْتِني مُدَّةً ولم تعلَمِي من أنا في البَلَدْ
فإني رأيتُكِ في نُزْهَةٍ فتَمَّ الودادُ لنا وانْعَقَدْ
وكانت لواحِظُنا بيننا رسولَ الغرامِ الذي لا يُرَدْ
فصِرْتُ أزورُكِ مستَخْفِياً أَبُثُّكِ حُبًّا بقلبي اتَّقَدْ
وها قد عزمتِ على صُحْبَتي وأنْ تَبْتَغِي عاشقاً قد شَرَدْ(٢)
ولمْ تسأليني فهلْ تتبعينَ شريداً طريداً حليفَ الكَمَدْ
يفرُّ عن النَّاسِ مَعْ عصْبَةٍ سَتُقْتَلُ في اليومِ أو يومِ غَدْ
رجالٌ لهم مثلُ أسيافِهِمْ مضاءُ الأكُفِّ وقلبُ الأَسَدْ

(١) كان نجيب الحداد يمزج في رواياته المسرحية الشعر بالنثر وأغلب القصائد في هذه الروايات كان بطل الرواية يغنيها .

(٢) عطف المصدر المؤول من « أن تبتغي » على المصدر الصريح « صحبتي » . شرد : نفر . يقال شوارد اللغة : نوادرها وغرائبها .

يسوقُهُمُ الثَّأرُ نَحْوَ المما ت ِ سَوْقَ الرّياحِ بقايا الزَّبَدْ
أتأتينَ كي ترأسيهمْ معي فإني رئيسُهُمُ المُعْتَمَـد
وكلُّهُمُ قاطعٌ للطريق قد عاث في الأرض حتى فَسَدْ
ألِفْتُهُمُ قبلَ سِنِّ الرَّشا د والمرءُ يجري على ما رَشَدْ
فكنتُ وليداً بلا والدٍ يحنُّ على ضَعْفِ ذاكَ الوَلَدْ
إلى أن كبرتُ ولي عصبَةٌ يفوقونَ ألفَيْنِ عند العَدَدْ
رجالٌ قلوبُهُمُ كالحديـد لا يخضعون لغيرِ الأَحَدْ(١)
وكلُّهُمُ رَهْنُ أمرِي فلو نفختُ بذا البُوقِ أبغي المَدَدْ
لأبصرتِ حوليَ منهم ألوفاً يجودُونَ بالرُّوحِ قبلَ الجَسَدْ
أراكِ ارْتَجَفْتِ إذاً فانظُرِي لنفسِكِ أمراً برأيٍ أسَد
لأنَّكِ إن تتبعيني تكنْ أمامَكِ هاوِيَةٌ لا تُسَد
تسيرينَ بينَ وعورِ الجبالِ وسهلِ الرّمالِ وحَرِّ الجَلَدْ(٢)
وحولكِ قومٌ تخالينَهُمْ من الجِنِّ في بأسِهِمْ والجَلَدْ(٣)
كأنَّهُمُ في ظلامِ الدُّجَى خيالاتُ رُعْبٍ لمن قد رَقَدْ
يخافونَ من قلعةٍ قد دَنَتْ ويخشَوْنَ من عاشقٍ قد رَصَدْ(٤)
ويحتسبون إذا أبصروا خيالاً بدا أو نسيماً وَرَدْ
ويستقبلونَ سهام العدوِّ إذا ما أَتَتْهُمْ كَرَشِّ البَرَدْ(٥)
كذاكَ تكونينَ في صحبَتي أليفةَ همٍّ وغمٍّ وكَدّ

(١) الأحد : الله الأحد . (٢) الجلد : الأرض الصلبة .
(٣) الجلد هنا : القوة والصبر والصلابة . (٤) رصد : رقب
(٥) البرد : حب الغمام المعهود وهو ماء الغمام يسقط جامداً لشدة البرد .

وقد تبلغينَ معي حيثُمَا ألاقي أبي بعدَ مَوْتِ النَّكَدْ(١)

شمس أسيرُ و إياكَ

حمدان إنَّ الأميرَ غنيٌّ شريفٌ رفيعُ العَمَدْ(٢)

يُنيلُكِ مالاً كثيراً ومَجْدًا رفيعاً وعِزًّا طويلَ الأَمَدْ

شمس تمضي غداً وأَتْبَعُكَ . حمدان لا تلمني على جسارتي الغريبة . إنّني لا أدري إذا كنت شيطاني أو ملاكي ولكنني أعلم أنني عبْدَتُك ورهنُ أمرِكَ اذهبْ إلى حيثُ تريد فأنا على أثرِكَ وسواءٌ بقيتَ أو رحلت فأنا لك و بين يديك ولا أدري لماذا أفعلُ ذلك بل أرى أنّني في حاجةٍ لأن أراكَ ولأن أراكَ أيضاً ولأن أراكَ دائماً و إنني عندما لا أعودُ أسمعُ خَفْقَ أقدامِكَ وأنتَ ذاهبٌ أشعرُ بأنَّ قلبي لم يَعُدْ يخفقُ و أنك إذ قد ذهبتَ عني فقد ذهبتْ نفسي معك ولكن عندما أسمعُ تلك الأقدامَ المحبوبةَ آتيةً أتذكَّرُ أنّني أحيا وأَنَّ نفسي قد عادت إليّ :

تغيبُ إذا ما غبتَ عَنِّيَ مهجتي وترجِعُ أشواقي إليَّ وأحزاني

وإن عدتَ عادتْ بهجتي ومسرّتي فأنتَ إذاً روحي وراحي وريحاني

حمدان أنتِ لي جَنَّةٌ أحنُّ إليها وعلى قُرْبِها يطيبُ زماني

---

(١) النكد : الشدة والعسر .

(٢) العمد : جمع عماد أو عمود وهو ما يسند به أو يقوم عليه البيت وغيره والعرب يكنون برفيع العماد عن الرجل المجيد الشريف وذلك لرفعة خباء الشريف منهم وسعة بيته وكانوا يمدحون طول العماد ويذمون قصره فمن المديح قول الخنساء في أخيها صخر :

رفيع العماد طويل النجا د ساد عشيرته أمردا

ومن ذم قصر العماد قول القائل :

إذا دخلوا بيوتهم أكبوا على الركبات من قصر العماد

طالَ صبري من طول هذا التجافي يا إلهي متى يطولُ التّداني
شمس غداً عند نصفِ الليل تأتي بأصحابِكَ إلى تحت نافذتي فتجدني كما تحبّ
وعلامة ما بيننا أن تقرعَ كفّيك ثلاثَ مرّات (١) .

٥ ـ نجيب الحداد الشاعر

ا — الشاعر الاتباعي

١ — الغزل

وحي الصبا

بدأ الشاعر حياته الشعرية محاكياً وهذه القصيدة التي تعد من الغزل الصناعي هي مما نظمه في صباه على أن محاكاة الأقدمين فيها تنبسط أيضاً إلى جودة الأساوب ومتانة الحبك وجمال الديباجة قال :

لِمَنْ طَلَلٌ بالرّقمتين نحيلُ عفَتْ رسْمَهُ الأرواحُ وهي قَبولُ (٢)
وقفتُ عليه ناقتي وجميعُنا على البعْدِ من طولِ الزّمانِ عليلُ
أسائِلهُ عن أهلِهِ فيجيبُني بهِ منزلٌ عافِي الطلولِ مَحِيلُ (٣)

---

(١) المشهد الثاني من الفصل الأول من رواية « حمدان » .

(٢) الرقمتان مثنى رقمة : الروضة وجانب الوادي أو مجتمع مائه . والرقمتان روضتان إحداهما قريب من البصرة والأخرى بنجد . والرقمتان روضتان بناحية الصمان وإياهما أراد زهير بقوله :

ودار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم

ومع اندثار آثار تلك الأماكن بقي الشعراء يذكرونها في شعرهم . القبول : ريح الصبا.

(٣) عافي الطلول : دارس الطلول . المحيل : المتغير .

سقاكِ الحيا يا دارَ هندٍ على البلى | وجادكِ من قطرِ الغمامِ سيولُ
وحيّا أُوَيقاتاً لنا بكِ قد مضتْ | وظلٌّ اجتماعي في رباكِ ظليلُ
وغصنُكِ من ماء السّحابِ منوّرٌ | وغصنيَ مِنْ ماءِ الشّبابِ يميلُ
وأيامُنا كالرّوضِ باكرَهُ النَّدَى | وهبَّتْ عليهِ في الصّباحِ بَليلُ (١)
إذ الشّمْلُ مأمونُ التفرّقِ والنَّوَى | وإذْ نحنُ في بُردِ الوصالِ نجولُ (٢)
تصبِّحُنا سلمى بصبحِ جمالِها | كما صبَّحَتْنا في الصبوحِ شمولُ (٣)
فتاةٌ لها في كلِّ قلبٍ جراحةٌ | وفي كلِّ نادٍ للغرامِ قتيلُ
سقيمةُ جفنِ الطرْفِ من غيرِ علّةٍ | قريبةُ ملقى الحاجبَيْنِ كسولُ
رقيقةُ مضمومِ الوشاحِ فخصرُها | ضعيفٌ وأمّا رِدْفُها فثقيلُ
لها مقلةُ الظّبْيِ الغريرِ وجيدُهُ | سوى أنّها تدنو وذاك جَفولُ
وترنو إلى عشّاقِها وهْوَ نافِرٌ | ويقتلهُ القنّاصُ وهْي قتَولُ (٤)(٥)

٢ ــ التاريخ الشعري

تأريخ زفاف

قال يؤرخ زفاف السيدة ماري كريمة خليل باشا خياط إلى السيد جبرائيل بك طنبه :

يا حُسْنَ عُرْسٍ في الأنامِ زها | فكَسَا الزمانَ طِرازُهُ المُعْلَمْ (٦)
نَثَرَ السُّرورَ على الوفودِ بهِ | فغدا الثّناءُ لأهلِهِ يُنظَمْ

---

(١) باكره : أتاه بكرة أي باكراً . والبليل : الريح الباردة مع ندى .
(٢) النوى : الفراق .
(٣) صبحه : أتاه صباحاً . والصبوح : كل ما أكل أو شرب صباحاً . والشمول : الخمر .
(٤) قتول : على وزن فعول بمعنى فاعل . (٥) ديوان « تذكار الصبا » ص ١٢
(٦) الطراز المعلم : الثوب ذو رسم ورقم .

من آلِ خيّاطٍ كريمتُهُمْ أضحتْ تُزَفّ لماجدٍ أكرَمْ
هي مريمٌ بعثَ الإلهُ لها جبريلَ بالبُشْرى لما أنْعَمْ
أرِّخْ كجبريلٍ بشارتَهُ قال السّلامُ عليكِ يامريمْ[1][2]

١٨٩٧

٣ — المديح والرثاء

سلطان زنجبـــار

كان حمد بن ثويني سلطان زنجبار قد أهدى إلى نجيب الحداد وسام الكوكب الدري فشرع ينظم قصيدة يشكره فيها ويمدحه ثم فوجئ الشاعر بنبأ وفاة السلطان فأتم القصيدة بالرثاء وهذا من غريب ما اتفق للشعراء :

وردَتْ هديتُكَ التي في طيّها شَرَفٌ تفوقُ بهِ الكواكبَ أجْمَعا
كالكوكبِ الدُّرّيّ إلا أنَّها جاءتْ بأبهى من سَناهُ وأسْطَعا[3]
أضحتْ عجيبةَ دهرِها في صورةٍ شِمْنا بها شمساً وكوكبَها معا[4]
نورٌ على نورٍ يضيءُ وصورةٌ رسِمَتْ بأشرفِ كوكبٍ قد أطلعا
لا بِدْعَ أن يُهدِي النجوم فصدرُهُ فَلَكٌ نراهُ لكلِّ شمسٍ مطلَعا
هو معقلُ اللاجي وغوثُ المحتمي وكفايةُ الرّاجي وعصمةُ من دَعا

---

(١) ديوان « تذكار الصبا » ص ٦٥

(٢) وفق الشاعر في نظم هذا التاريخ توفيقاً عجيباً فإنه تاريخ لطيف جميل حافل بالمعاني والرموز والإشارات .

(٣) الكوكب الدري : الثاقب المضيء كالدر .

(٤) شمنا : نظرنا من شام يشيم البرق : نظر إليه أين يتجه وأين يمطر .

حَمَـد الثوينيُّ السّعيدُ وحبَّـذا شَرَفٌ يروقُكَ منظراً أو مسمَعا
نَسَبٌ إلى قحطانَ ينْمَى أصـلُهُ في دوحِ مجدٍ قد زكا وتفرّعا
وضَعَ العمامةَ فاعتلتْ شَرَفاً على تيجان كِسْرَى في الملوكِ وتُبَّعا(١)
وتقلَّدَ السـيفَ اليماني فاغْتَدَى منهُ على سيفٍ أحَـدَّ وأقطعا(٢)

* * *

بلغ المديحُ إلى هنـا وتصدَّعَتْ أقلامُهُ وهَوَى الثّنـا فتصدّعا
وغـدا يرجّعُ بالرّثاءِ مردّدًا من كان يهتفُ بالدُّعاءِ مرجّعا(٣)
للهِ يومٌ ما تبـدّى أبيضاً حتّى غدا في العينِ أدْكَن أسْفَعا(٤)
وقصـيدةٌ لم يستتمَّ مديحُها حتى استحالَ إلى الرّثاءِ مفجّعا
بينا اليراعُ له صريرٌ مطربٌ إذ صارَ وهْوَ أنينُهُ متوجّعا
ذهبَ الذي خفِيَ الزّمانُ بفضلِهِ عنّا فكان على أذاهُ بُرْقُعـا
وغدا بلا نفعٍ ولا ضررٍ بهِ من كان يقدرُ أن يضرّ وينْفَعا(٥)
وتقطّعتْ تلك العزائم بعـد ما تركتْ بنانَ زمانِهـا متقطّعا(٦)

---

(١) التبع : لقب ملوك اليمن .

(٢) اليماني : نسبة إلى اليمن .

(٣) رجع في صوته : ردد وكرر . ورجع في المصيبة : قال إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٤) الأدكن : المائل لونه إلى السواد . والأسفع : الأسود اللون إلى حمرة .

(٥) مات سلطان زنجبار الممدوح المرثي فأصبح جثة هامدة لا يقدر أن يضر ولا ينفع كما مات قبله أبو شجاع فاتك وفيه قال المتنبي راثياً متحسراً :

برد حشاي إن استطعت بلفظة فلقد تضر إذا تشاء وتنفع

(٦) ديوان « تذكار الصبا » ص ٥٤ — ٥٥

٤ – الإخوانيات

أحمد شوقي

« وقال مجيباً صديقه الشاعر المشهور أحمد بك شوقي على أرجوزة أرسلها إليه من باريس » :

حكايةُ المسْكِ معَ الثّيابِ أغربُ ما مرَّ بهذا البابِ
إذْ أقبلَ المسكُ إلى الثوبِ النقي وقالَ قد جئتُ بنَشري العَبِقِ (١)
أهديكَ من عَرْفي الذّكي ألوانا تعطّرُ الأذيالَ والأردانا (٢)
وتجتَدِي منهنَّ نشْرًا طيِّبا أطيب للناشِقِ من زهرِ الرُّبى (٣)
لكنْ على شرْطٍ بكتْمِ أمْرِي كي لا يذيعَ في الأنامِ سرّي
لأنّني من رغبَتي في الكَتْمِ وخوفِ أن يدري الوُشاةُ باسمي
ظهرتُ ما بينَ الوَرَى في لقَبِ مخالفٍ كنيةَ أمّي وأبي
وفوقَ ذا فإنما الإخاءُ يزيدُ في توثيقهِ الخفاءُ
وإنّني ناديتُ فيما قد عبَرْ يا سعدَ مَنْ صافَى وصُوفِي واستَتَرْ
فقال ذاكَ الثّوبُ ما أنصفْتَني بما منَ الكتمان قد كلّفتَني
فإنّكَ المسكُ بطيبٍ يعلو والمسكُ مَنْ يحمِلُهُ لا يخلو
وهَبْ كتمتُ اسْمًا عليكَ ذائعا فكيفَ أُخفِي عنكَ عِطرًا ضائعا (٤)
ثُمَّ حرامٌ أن أكونَ وحْدِي مُمتَّعًا منكَ بهذا المجْدِ

---

(١) النشر : الريح الطيبة أو الريح عموماً . العبق : الذي تفوح منه رائحة الطيب .

(٢) العرف : الرائحة مطلقاً وأكثر استعماله في الطيبة . والذكي : الساطع الرائحة . والأردان جمع ردن : طرف الكم الواسع .

(٣) اجتدى : طلب الجدوى أي العطية .

(٤) العطر الضائع : المنتشر .

فأنتَ للحبِّ عينُ الشَّرفِ ومن يكونُ شرَفاً لا يختفي(١)
لكنْ إذا رجعتَ للواجبِ وما قضتْ من حفْظِ حقِّ الطالبِ
فإنّني أكتمُ ما استطعْتُ عسى أكونُ فيه قد نفعْتُ
وإنّ قُرْبَ القلبِ في البعادِ خيرٌ من القُرْبِ بلا ودادِ(٢) (٣)

ب — الشاعر الغنائي

١ — الشعر الوجداني

صـــــبابة

قال ينفس عن فؤاده ما يحمل من شوق وهوى وصبابة :

ترُى عندكمْ للحبِّ مثلُ الذي عندي وهل وجْدُكمْ بي مثلما بكمُ وجْدي
وهل شوقُكمْ شوقى وهل في جفونِكمْ كما في جفوني من دموعٍ ومن سهْدْ
وهل تذكرونَ العهْدَ بيني وبينكمْ فإن فؤادِي دائماً ذاكرُ العَهْدِ

---

(١) الشرف : المجد . والشرف من الأرض : المكان المرتفع العالي .
(٢) ديوان « تذكار الصبا » ص ٧٨ – ٧٩
(٣) تضمين للمثل الفرنسي الذي يقول : « البعيد عن العين بعيد عن القلب .
Loin des yeux loin du cœur » أي أن الإنسان ينسى البعيد عن النواظر غير أن الشاعر قد تصرف بالمثل وطوعه للمعنى الذي يقصده .
ومن الأمثال الفرنسية التي تسربت إلى الشعر العربي الحديث المثل الذي يقول : « آه لو عرف الشباب وقدر المشيب Si jeunesse savait, si vieillesse pouvait »
نظمه إسمعيل صبري فقال :
أواه لو عرف الشبا ب وآه لو قدر المشيب
وضمن خليل مطران هذا البيت مرثيته لإسمعيل صبري فقال :
الضارب الأمثال ليـــس له بروعتها ضريب
هل في الجديد كقوله الـــمأثور والمعنى جليب
آهان لو عرف الشبا ب وآه لو قدر المشيب
استبدل مطران كلمة آهان بكلمة أواه لأن أواه معناها التأوه وليست من كلمات الندبة مثل آه .

رجعتُ إلى سُبْلِ الهوَى مذ رأيتكم ... ولم أدرِ هل فيهِ ضلاليَ أمْ رشْدِي

وأهديتُكمُ قلبي على يدِ أدْمُعٍ ... هي الرُّسْلُ للعشّاقِ تحملُ ما تُهْدِي

فلا ترجِعُوا ما قد أخذتُمْ فإنّهُ ... هديّةُ حبٍّ غيرُ مقبولةِ الرّدِّ

ولا تجزَعُوا من نارهِ إنّ نارَهُ ... سلامٌ وإن كانتْ مؤجَّجَةَ الوَقْدِ (١)

فيا مهجتي كوني لديهمْ قريرةً ... فقد زالَ ما تشكينهُ من جوَى البُعْدِ

ويا جسدي قد نال قلبُكَ ما اشتَهى ... بِهِمْ فاسترِحْ منهُ ومن ألَمِ الصدِّ

ويا قلبُ إن رُمْتَ السعادةَ فيهمِ ... فمُتْ إنّ موتَ الحبِ ضربٌ من السَّعْدِ

خليليَّ ما للحبِّ يستعبدُ الفتى ... وما للفتى في الحبِّ أطوعُ من عبدِ

وما للهوَى يفني فؤادَ أخي الهوى ... ولو كان ذاكَ القلبُ من حَجَرٍ صَلْدِ

تباركَ خلّاقُ المحاسنِ إنّهُ ... ينالُ بها ثأرَ الظِباءِ من الأُسْدِ

يقلّدُها أجفانَها ولحاظَها ... فتسطو علينا بالحسام وبالغمْدِ

سقيمةُ جفْنٍ راح قلبي يعودُها ... ولم أدرِ أن السُّقْمَ من جفنِها يُعدي (٢)

تتيهُ دلالاً ثمَّ يغلبُها الحيا ... فيبدو لحبّاتِ الغمامِ على الوَرْدِ

يميلُ فؤادي من تثنّي قوامِها ... وتندَى جفوني من نَدَى ذلكَ الخدِّ

فيا حسْنَ ذاكَ الغصنِ يثْني وينثني ... ويا طيبَ ذاكَ الوردِ يندى ويستندِي

عرفتُ الهوَى من يومِ باشَرَني الهوى ... كأنّا لدى الميلادِ كُنّا على وَعْدِ

فؤادي على مَهْدِ الهوَى وفؤادُها ... معاً غيرَ أنّا ما التقَيْنا على مَهْدِ

ولم أنسَ ليلاً ضمَّنا فيهِ مجلسٌ ... رقيقُ حواشي الأنسِ مؤتلِفُ الوَفْدِ

وقد مازجَتْ كأسَ الطِلا خمرةُ الهوَى ... وطابتْ بلحنِ العودِ رائحةُ النّدِّ

---

(١) مؤججة: ملتهبة. (٢) من ألطف ما جاء في وصف العدوى وحسن تعليلها قول بشار:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ... فلم أدر أن الجود من كفه يعدي

ودارتْ كؤوسٌ من جَنى الكرْمِ مَزّةٌ فلم يكُ أحلى من جَناها جَنى الشّهْدِ (١)

يرصّعُها نظمُ الحبابِ بلؤلؤٍ كما دارَ حولَ الجيدِ منتظمُ العِقْدِ

وباتَ فؤادي في الهوَى ينشدُ الصَّبا وباتَ مغنِّينا يغنّي على الرَّصْدِ (٢)

ولا رُسْلَ إلا اللحظُ بيني وبينَها ونحنُ سكوتٌ لا نُعيدُ ولا نُبْدِي

كلامٌ بلا نُطْقٍ وعهدٌ بلا يدٍ وسمْعٌ بلا أُذْنٍ وشوقٌ بلا بُعْدِ

سطورُ هوًى من ثغرِ حوّاءَ أُنْزِلَتْ على وجْنَةِ التُّفّاحِ في جنّةِ الُخلْدِ

ولمّا دعاها آدمٌ هزّهُ الهوَى وأنْشَدَ هذي إرْثُ نِسلِيَ مِنْ بَعْدِي

تراثٌ تولّاه الكرامُ من الورَى فما حرمتْ منهُ سوى مهجَةِ الوَغْدِ

وقد قُسِمَتْ بينَ القلوبِ سهامُهُ فمن كلِّ ذي لحْظٍ إلى كلّ ذي كَبْدِ

فيالكَ من ليلٍ محوت ظلامَهُ بظالمــةِ العَيْنِ عادلةِ القَدِّ

سقتني بعينيها الهوَى وسقيتُها ولم أدْرِ أنّي قد سكرتُ بها وحدِي

إلى أن بدتْ كفُّ الصّباحِ برايةٍ تلوحُ على جندٍ من الليلِ مسوَدِّ

وغابتْ مصابيحُ النجومِ كأنّما طفاها نسيمُ الفجرِ من فمِهِ الوَرْدي (٣)

فقمتُ وقد سلّمْتُ للحبِّ مهجتي وقضّيتُ في شَرْعِ الهوَى واجبَ الودِّ

وقاسمتُ مَنْ أهوَى فؤادِيَ والهوَى فكان فؤادي عندَها والهوى عندي (٤)

---

(١) المز : الشيء الفاضل . والمزة : الخمر اللذيذة الطعم .

(٢) الصبا والرصد : لحنان من ألحان الموسيقى .

(٣) لعل الشاعر تأثر أبا تمام إذ يقول :

كأن نجوم الليل في أخرياته عيون له نادى بتغميضها الفجر

ولكن الحداد جود وأبدع فهذا الفم الوردي للفجر صورة من الصور المثيرة المرقصة .

(٤) ديوان « تذكار الصبا » ص ٢٩ – ٣١

لهو وعبث

وهذه قصيدة يرضى عن شاعريتها محبو الشعر الملهم وقادروه ويرضى عن نشر مطاويها أنصار الكشف والعلانية . قال :

لَم أنْسَ حين قَدَدْتُ جيبَ قميصِها عنها وذيلُ الليلِ يجمعُنا مَعَا
فكأنّني مزّقتُ جلبابَ الدُّجَى عن نورِ بدرٍ بالغمامِ تلفّعا(١)
فرأيتُ أبدعَ منظرٍ قد سُطِّرَتْ فيه المحاسنُ جلَّ مَنْ قد أبْدَعا
جسمٌ كتمثالِ الرّخامِ أدقَّ في تكوينِهِ فَطِنٌ أجادَ وأبْدَعا
هذا وقد صَبَغَ الحياءُ جبينَها حتى ظننتُ بياضَهُ متبرقِعا
وحنَتْ عليَّ حُنُوَّ أمٍّ مرضِعٍ مع أنّها بكرٌ ولم تكُ مرضِعا
وثنت على عنقي يديها خجْلةً منّي لتحجبَ ناظري وتمنّعا
فرأيتُ أحسنَ هاربٍ منّي إلى صدري وأجملَ خائفٍ قد رُوِّعا
ورنَتْ إليَّ فكنتُ طوعَ بنانِها حبًّا وكانتْ من بَناني أطوَعا
وأجبْتُها وجبينُها متصبّبٌ عَرَقاً حكى درًّا عليهِ ترصَّعا
لا تستري هذا الجمالَ بثوبهِ فالبدْرُ ليسَ يروقُ حتى يطلُعا
والشمسُ ليس يلوحُ رونق نُورِها إلا إذا انجابَ الغمامُ وأقْشعا
والدُّمْيَةُ الحسناء لا تحلو لنا حتى يزاحَ ستارُها أو يُنزَعا
لا يوقَدُ المصباحُ تحتَ غشاوةٍ بل ينجلي حتى ينيرَ ويسْطعا
حتى انثنتْ فجعلتُ زندي حولَها كنطاقِها وجعلتُ صدري مضجَعا
وضممتُها حتى وثقتُ بأننا جسمانِ ضمّهما الهوى فتجمَّعا(٢)

---

(١) تلفع به : تغطى به

(٢) بيت فريد جميل حذا فيه قائله حذو ابن الرومي الذي يقول :
أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان

لا شيْءَ يُبْعِدُ صدرَها عني سوى حقَّينِ من عاجٍ عليه تربّعا[1]
نهْدانِ خَصَّهُما الغرامُ بنفسهِ عرشاً فسادَ عليهما وترفّعا
فلو اجْتَلى أهلُ الغرامِ سَناهما لغَدَوْا جميعاً ساجدينَ ورُكَّعا
هذا وقد مزجتْ بريقي ريقها كالماء يُمْزَجُ بالرّحيقِ مُشَعْشَعا[2]
وتناثرتْ منها غدائِرُها على عنقي فكانتْ عقديَ المترصّعا
وتلهَّبَتْ وجناتُها كالنـارِ من فرْطِ الحياء فأوشكتْ أن تلمعا
وجعلتُ أخمدُها بتقبيلي فما تزدادُ إلا حمرةً وتوسُّعا
والليلُ يسبلُ سترَهُ من حولِنا فنزيدُ من طيبِ العناقِ تمتعا
والحبُّ يملأُ من بهاءِ جمالِها عيني ويملأُ من هَواها الأضلعا
حتى رأيتُ الليلَ مالَ بجنحِهِ ورأيتُ وفْدَ الصّبحِ يقبلُ مسرعا
فنهضتُ أسترُها وتستُرُني على خوفٍ الرّقيبِ وحقّنا أن نجزَعا
وجعلتُ لا ألتَذُّ موضع صبْوةٍ إلا ذكرتُ لديهِ ذاكَ الموضِعا[3]

---

(١) هذان الحقان من العاج كم أوحيا للشعراء فقد قال فيهما شاعر عربي قديم :

في صدرها حقان خلتهما كافورتين علاهما ند

وقال الشيخ إسكندر العازار في ذلك :

حقاق من العاج قد ركبت على صحن صدر من المرمر
خشين السقوط فأثبتها بشبه مسامير من عنبر

وقال خليل مطران :

كحقي لجين بقفلي عقيق وكنزين في رصد مرصد

وقال شفيق المعلوف :

هل النهود البيض ألصقها من نتف الغمام فوق الصدور
والنقط الحمراء في وسطها أهي من الفجر بقيات نور
أم بقع منذ عناق الهوى تؤج فيها جمرات الثغور

(٢) الرحيق : الخمر . شعشع الشراب : مزجه بالماء .

(٣) ديوان « تذكار الصبا » ص ٧٧ — ٧٨

شكوى من الدهر والناس

لنجيب الحداد شكاوى من الدهر والناس مبثوثة في غير قصيدة من قصائده وهكذا الخلق المثالي يثيره ما يلقى في الدهر من غدر وإجحاف وما يجده في الناس من مثالب وقبائح. قال من قصيدة :

تخالَفَ أبناء الزّمانِ فمُظهِرٌ خلاف الذي يُخفِي وآخرُ يكتمُ
ولم يبْقَ إلّا من يريبُك قولُهُ وتزدادُ فيه ريبةً حين يُقسِمُ
وتسمَعُ منْهُ غيرَ ما في فؤادِهِ وشتّانَ ما قلبُ الفتى والتكلّمُ
عجبتُ لنفسي كيفَ لا تسأَمُ البقَا وبعضُ الذي تلقاهُ للنَّفسِ يُسْئِمُ(١)

نفثة مصدور

وهي من أواخر ما نظمه أيام اعتلاله :

أخْمَدَ الدَّهْرُ مِن فؤادِيَ جَمْرا وألانَ الزمانُ منّيَ صخْرا
وتجنَّتْ بيَ الخطوبُ فأنْسَتْـنِي معاني الكلامِ نظماً ونَثْرا
وأرَتْـني الأيّامُ من أوْجُهِ الدَّهْـرِ حروفاً عواطِلاً ليسَ تُقْرَا
كلّما قلتُ قد ظفرتُ بمعنًى ضربتْ دونه على السَّطْرِ سَطْرا
قد تَوَلَّى الشّبابُ إلا قليلاً ومضَى طِيبُهُ الشهيُّ ومَرّا
كانَ لي في الصِبَى صُبابةُ شعرٍ صَبّها صائبُ الصّبابةِ هَدْرا(٢)
ذهبتْ والفؤادُ يتبَعُ إثْراً من خُطاها والعمرُ يتبَعُ إثْرا

---

(١) ديوان « تذكار الصبا » ص ١٤ – ١٥

(٢) الصَّبابة : الشوق والولع الشديد . والصُّبابة : بقية الماء ونحوه في الإناء .

إنَّ قلباً معذَّباً نثرَتْهُ　　أسهُمُ الدَّهرِ كيف ينظمُ شِعْرا
لم تبقَ لِيَ المصائبُ إلا　　قلماً كسْرُهُ أحقُّ وأحرى[١]
كنتُ أرجوهُ للخطوبِ فأضحى　　لِيَ أمضى سهامِها حين يُبْرَى[٢]
وغدا حبْرُهُ يخطُّ سطوراً　　تجْتَلِيها عيني دماءً حُمْرا
ما يُرَجِّيهِ كاتبٌ من يراعٍ　　لم يكنْ في الذي يُرَجِّيهِ حرَّا
في إسارٍ يكاد يكسرُهُ القَيْـ　　ـدُ ولا يستطيعُ للقيد كَسْرا
يسفكُ الحبرَ مكرَهاً وَهوَ لو كا　　نَ طليقاً لكانَ يسبكُ تِبْرا
أعقبتْني صبراً به بعضُ آما　　لٍ وإنَّ الآمالَ تعقبُ صَبْرا[٣]

٢ ــ الشعر القصصي

شهيدة الحب

في ديوان الشاعر أمثلة كثيرة للشعر القصصي فقد كان القصص يجري على سنان قلمه نثراً وشعراً وهذا مثال من أمثلة الشعر القصصي قال :

هيفاءُ زيَّنَ خدَّها وَرْدُ الصِّبَى　　فتمايلتْ كالغصنِ حرَّكَهُ الصَّبا[٤]
حسناءُ طاهِرَةٌ كزهرةِ روضةٍ　　ما مَسَّها غيرُ النسائمِ والنَّدَى
بيضاءُ يحْدِقُ شعرُها بجبينِها　　فتريكَ عينَ الصُّبْحِ في وجهِ الدُّجَى
نشأتْ وحيدةَ أهلِها في قريةٍ　　كالزَّهْرِ ينشَأُ زاهِياً بين الرُّبَى
لم تدْرِ غيرَ الحقلِ والنَّبْتِ الذي　　يزهو عليهِ ووردِهِ الغضِّ الجَنَى[٥]

(١) لا بد من إشباع القاف في كلمة تبق حتى يستقيم الوزن وهو مكروه .
(٢) برى السهم والقلم : نحته فانبرى . (٣) ديوان « تذكار الصبا » ص ٦٣
(٤) الصبى : الشباب والشوق . والصَّبا : ريح مهبها جهة الشرق .
(٥) الغض : النضير . والجنى : ما يجنى ويقطف .

والشمسُ غارِبَةٌ تودِّعُها متى غابتْ وتلقاها متى لاحَ الضُّحَى
والبدرُ تنظرُهُ فتحسبُ رسْمَها فيه ويحسبُ رسمَهُ فيها بدا[١]
وقفتْ على بابِ الخباء عشيَّةً كالشّمسِ قد وقفتْ على أفقِ الضِّيا[٢]
وجَرَى النّسيمُ بهـا يلاعِبُ شعْرَها حيناً فيخفقُ مثلما خَفَقَ اللِّوا
وإذا بوقْعِ حوافرٍ في قُرْبِها وفتًى على سَرْجِ الجوادِ قد اسْتوَى
ذو قامةٍ هيفاءَ تُزْرِي بالقنا ولواحظٍ نجلاءَ تُزْرِي بالظُّبَى[٣]
وقد انْتَضَى سيفَ القتالِ وجفنُهُ أمضى وأفتكُ مقتلاً ممـا انْتَضَى
وعلى ملابِسِهِ الحليُّ لوامعاً كالبدرِ في زُهْرِ النُّجومِ قد انْجَلَى[٤]
وافَى فحَيَّـا باسِماً متلطّفاً ودَنَا لها مستَسْقِياً يشكو الظّما[٥]
فمضتْ فجاءَتْهُ بكأسٍ وانثَنَتْ ترنُو لطلعَتِهِ كما ترنُو المَهَى[٦]
ترنو إليه وهْوَ يشرَبُ باسِماً حتى ارْتَوَى واللحظُ منها ما ارْتَوَى
يَحْسُو الشَّرابَ وتحْتَسي من حُسْنِهِ خمْرًا بها قلبُ الفتاةِ قد اكتوى[٧]

---

(١) في هذا البيت إلماع إلى البيتين المشهورين :

رأت قمر السماء فذكرتني ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمراً ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

(٢) الخباء : ما يعمل من وبر أو صوف للسكن .

(٣) هيفاء : مؤنث أهيف : الرقيق الخصر . أزرى به : استخف . القنا : العصا أو الرمح أو عوده . نجلاء : مؤنث أنجل : الواسع الطويل العريض .

(٤) زهر : جمع أزهر : النير المشرق . والأزهران : الشمس والقمر .

(٥) مستسقياً : طالباً السقي والشراب . ومن معاني استفعل : طلب الشيء كاستغفر : طلب الغفران .

(٦) رنا إليه وله : أدام النظر إليه بسكون الطرف . المهى : جمع مهاة : البقرة الوحشية يشبه بها في حسن العينين وهذا كثير في شعر العرب كقول علي بن الجهم :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

(٧) حسا واحتسى : شرب شيئاً بعد شيء . وحسا الطائر الماء : تناوله بمنقره .

حتَّى اكْتَفَى فأعادَ كأسَ شرابِهِ ... مملوءةً بعد المياهِ من الثَّنا

ومَضَى فودَّعَها وأَوْدَعَ قلبَها ... بَدَلًا لبَرْدِ شرابِها حَرَّ الجوَى (١)

دخَلَ الهوَى قلباً خلِيًّا لم يكَدْ ... يدري الهوَى حتى تملَّكَهُ الهوى (٢)

فقضَتْ سوادَ ظلامِها في ظلمةٍ ... لليأسِ يوشكُ لا يضيءُ بها الرَّجا

يهفو النّعاسُ بجَفْنِها فيردُّهُ ... مِمَّنْ تملَّكها خيالٌ قد سَرَى (٣)

حتَّى إذا انْجابَ الظلامُ وأشرقَتْ ... شمسُ الضُّحَى تزهو على أفقِ السَّما

وافَى رسولٌ من حبيبِ فؤادِها ... بهديّةٍ تُهْدَى لربَّاتِ البَها

مرآةُ وجهٍ قد تكلَّلَ حَرْفُها ... من فضّةٍ بيضاءَ زادَتْها صَفا

فدَنَا وقالَ هديّةٌ من سيّدِي ... تُهْدَى لسيّدتي وسَلَّمَ وانْثَنَى

كانتْ جزاءً للشَّرابِ ولَيْتَ لم ... يكنِ الشَّرابُ ولم يكنْ هذا الجزَا

فلقد سَبَى قلْبَ الفتاةِ صَبابةً ... وهَوًى لِذَيَّاكَ الجميلِ وما دَرَى (٤)

وجرتْ مدامِعُها بذَوْبِ فؤادِها ... شوقاً إليهِ وليسَ يعلَمُ ما جرَى

كالقوْسِ أطلقَ سهمها فجَنَى ولا ... لومٌ عليهِ فليسَ يَدْرِي ما جَنَى

ترنو إلى مرآتِهِ فترَى بها ... تَذكارَ طلعتِهِ وطلعتها سوا

فتزيدُ بالتَّذكارِ نار غرامِها ... وتزيدها نارُ الغرامُ من الضَّنى (٥)

ما زالَ يُذْكِيها الهوى ويُذِيبُها ... حتَّى غدَتْ شَبَحًا أرَقَّ من الهوا

---

(١) الجوى : شدة الوجد من حزن أو عشق . والجوي : العاشق . قال المتنبي :

ما لنا كلنا جو يا رسول ... أنا أهوى وقلبك المتبول

(٢) إشارة إلى قول يزيد بن الطثرية :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

(٣) سرى : سار ليلا . (٤) سبى : أسر .

(٥) الضنى : المرض والهزال وسوء الحال .

وهَوَتْ على مَهْدِ السَّقامِ عليلةً ... تشكو الذي يبدو وتكتمُ ما اختَفى
حارَ الجميعُ بها فلم يدرُوا لها ... داءً تكابِدُهُ ولم يدرُوا الدَّوا(١)
وأقامَ يندبُ والداها حسْرَةً ... وأسىً وما يُجْدِي التحسُّرُ والأَسَى
والبنتُ كاتِمَةٌ حقيقةَ دائِها ... وتقولُ لا أدرِي فذا حكم القَضَا
حتى إذا بَسَطَ المماتُ جَناحَهُ ... من فوقِها ودَنَا ينازِعُها البَقا
والنَّزْعُ يجذبُ نفسَها من صدرِها ... فتردُّهُ عنها الغضاضةُ والصِّبى(٢)
وذوو قرابَتِها حوالَيْها وقد ... عجزُوا فليسَ سِوَى التأسُّفِ والبُكا
والشَّمسُ قد غابتْ تودِّعُها كما ... كانتْ ولكن لا تقول إلى اللقا
سمعتْ بقُرْبِ البابِ وقْعَ حوافرٍ ... ورأتْ حبيبَ فؤادِها منهُ أتى
وافَى ولكن بعد ما انْقَطَعَ الرَّجا ... ووَفَى ولكن حينَ لا يُجْدِي الوَفا(٣)
ودَنَا إليها وهْوَ لا يدرِي الذي ... أجراهُ سيفُ لحاظِهِ فيما مَضَى
وحَنَا عليها وهْوَ يسألُ جازِعاً ... ويقولُ كيف أصابهاسَهْمُ الرَّدَى(٤)
فَرَنَتْ إليه بمُقْلَةٍ فتَّانَةٍ ... وكَسَا اصفرارَ جبينِها وَرْدُ الحيا
وتنهَّدَتْ أسَفاً وقالتْ إنَّ بي ... سَهْماً أصابَ القلبَ من عَيْنَىْ فتى
هذا هو الدَّاء الذي أقضِي به ... حُبّاً وكم من عاشقٍ قبلي قَضَى

---

(١) لأبي نواس في هذا المعنى بيت جميل في محبوبته «دنانير» يقول فيه :

يا ويح أهلي أبلى بين أعينهم ... على الفراش ولا يدرون ما دائي

وشطره شوقي فقال :

يا ويح أهلي أبلى بين أعينهم ... ويدرج الموت في جسمي وأعضائي
وينظرون لجنب لا هدوء له ... على الفراش ولا يدرون ما دائي

(٢) الغضاضة : النضارة . (٣) يذكرنا هذا الوصال المتأخر بقول من قال :

دنت وظلال الموت بيني وبينها ... وأدلت بوصل حين لا ينفع الوصل

(٤) حنا عليه : عكف ومال .

فأجابَ مَنْ هـذا الفَتى فتناولَتْ مرآتَهُ بيَدٍ يصـافِحُها الفَنَـا
وَرنَتْ وقالتْ عندما يبدو الضُّحَى وتكونُ روحي فارقتْ هذا الوَرَى
إن شئتَ تعرفُ مَنْ قضيتُ بِحُبِّهِ فانظرْ إلى المرآةِ تلقاهُ هنـا(١)

واقعة حال

شعر في قصص ودعابة اختار له الشاعر ثوب الموشح فبدا يتيه في أغصانه وأسماطه قال :

نحنُ أعضاءَ لجْنَةِ الخَمْرِ بحضـورِ الـكؤُوسْ
قد حضرنا بالنَّـايِ والزَّمْرِ لانْتخـابِ الرَّئيسْ(٢)
مُقْسِمينَ اليمينَ بالسُّكرِ وطِلاَ الخَنْدَريسْ(٣)
إنَّنا خاضعونَ للأَمْرِ مُطْرِقُـونَ الرُّؤُوسْ

* * *

والرئيسُ الذي انْتَخَبْناهُ لارْتشافِ العُقـارْ(٤)
واعتَمَدْناهُ وارْتَضَيْناهُ لـكـؤوسٍ تُدَارْ
وإماماً لنـا جَعلْناهُ حـينَ قَرَّ القَرارْ
هو « عبَّاد » صاحبُ الأَمْرِ وأمـيرُ الجُلُوسْ(٥)

---

(١) ديوان « تذكار الصبا » ص ٤١ – ٤٤

(٢) الناي : آلة من آلات الطرب ينفخ فيها والكلمة من الدخيل . الزمر : الصوت والمقصود به هنا الزمارة أو المزمار .

(٣) الخندريس : الخمر القديمة .

(٤) ارتشف الماء : بالغ في مصه .

(٥) جلوس : جمع جالس .

* * *

أمْهَرُ الشّاربينَ في النّاسِ ورفيــــقُ المُدَامْ
ونديمُ «الخمسينَ» والـكاسِ في الضُّحى والسّلامْ(١)
وإمــامٌ لنــا على الرّأسِ وَهْــــوَ نِعْمَ الإمــامْ
اِنْتَخَبْنــاهُ لَيْلَةَ البَدْرِ في اجــــتماعٍ أَنيسْ

* * *

ذاكَ في جلسةٍ عَقَدْناهــا بحضــورِ الصِّحــــابْ
وانْتِخاباتهُمْ جَمَعْنــــاها في كُؤُوسِ الشَّرابْ
فوَجَدْنا اتّفــاقَ معنــاها بانْتِخــــابِ الجنــابْ
فجعلنـــــاهُ زينةَ الصَّدْرِ وأرَحْنــــا النُّفُوسْ

* * *

تَمَّ هــذا القَرارُ تحريرا قَبْلَ يومِ الأَحَـــــدْ
ولقــد قرَّروهُ تقريرا من سُكارَى البَــلَدْ
إنَّ «عبَّاد» كان سِكّيرا لم يَفُقْهُ أَحَــــدْ
فإذا ماتَ ليس من عِطْرِ بعــد هَذِي العَرُوس(٢)

---

(١) زجاجة معروفة لبعض أنواع الكحول (هذه الحاشية وردت في ص ٨٨ من الديوان).

(٢) من أمثال العرب : «لا عطر بعد عروس» قالت هذا أسماء بنت عبد الله العذرية فقد كان زوجها واسمه عروس مات عنها وتزوجها رجل أعسر أبخر بخيل دميم فلما أراد أن يظعن بها قالت : لو أذنت لي رثيت ابن عمي فقال افعلي فرثته بكلام عرف منه الزوج أنها تعرض به فلما رحل بها قال : ضمي إليك عطرك وقد نظر إلى قشوة عطرها مطروحة فقالت : «لا عطر بعد عروس» فذهبت مثلا .

* * *

سَجِّلُوا ذا القرارَ تسجيلا   في بُطـونِ الوَرَقْ
واقرَأُوهُ لحنًا وترتيـلا   فِي نوادي العَرَقْ (١)
وكذا ذَيِّلوهُ تذييلا   بأســـامِي الرِّفَقْ (٢)
تَمَّ هـذا القرارُ في مِصْرِ   في مسـاء الخمـــيسْ

* * *

سَنَةَ السَّبْعِ بعـد تِسْعينا   وثمـــانِي مِئِــينْ
بعدَ ألفٍ من عهْدِ فادِينا   سيِّــــدِ الشّـارِبينْ (٣)
الذي حلَّلَ الطلا دِينـا   في الـكتـاب المبِـينْ
فاستَعَضْنا بها عن الِحبْرِ   وخَتَمْنـا الطُّروُسْ (٤)

---

(١) جاء في « لغة الجرائد » للشيخ إبرهيم اليازجي عن كلمة « النوادي » ما يلي : « ويقولون قد شاع هذا الخبر في النوادي يريدون جمع النادي وهو مع كونه القياس غير مستعمل وإنما يقال في جمعه الأندية وهو في الأصل جمع ندي بمعنى النادي استغنوا به عن جمع النادي كما استغنوا بالأحاديث الذي هو جمع الأحدوثة عن جمع الحديث » .

وعلى هذا استعمل الحداد الجمع القياسي وهو غير مستعمل ونحا نحوه البارودي حيث يقول :

أنا مصدر الكلم البوادي   بين المحاضر والنوادي
أنا فارس أنا شاعر   في كل ملحمة وناد

(٢) الرفق : جمع رفقة : جماعة المرافقين .

(٣) يراد من قوله سيد الشاربين أن السيد المسيح شرب الخمر في قانا الجليل . وفي البيت التالي إشارة إلى قول الكتاب المقدس قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان (هذه الحاشية وردت في ص ٨٩ من الديوان) .

(٤) ديوان « تذكار الصبا » ص ٨٨ — ٨٩

٣ — الشعر التصويري

وصف القمر

من أشهر قصائد الحداد في الوصف هذه القصيدة التي أجاد فيها وأبدع وتغلغل فيها إلى وصف الظواهر والخواطر قال :

إذا مُلِئَتْ من البَدْرِ العيونُ　　وهاجتْ منهُ أو سكنتْ شُجُونُ (١)
وأقْبَلَ في منازِلِهِ انتِقالاً　　يحفُّ بهِ من الليلِ السُّكونُ
رأيتَ بدائعَ الأفلاكِ تُجْلَى　　بما يَجْلُو بهِ الهَمَّ الحزينُ
وسارَ البَدْرُ يسبحُ في سماءٍ　　عليها من كواكِبها سَفِينُ (٢)
تمرُّ بهِ السّحائبُ مُسْرِعاتٍ　　فيخفَى تحتَهُنَّ ويستبينُ
كخَوْدٍ أقبلتْ في الرَّوْضِ تَسْعَى　　فتظهرُ ثم تحجُبها الغصونُ (٣)
تقابلُ وجههُ فيلوحُ فيهِ　　لصورةِ وجهك الرَّسْمُ المبينُ
فتحسبُ منهُ أنَّ هناكَ ماءً　　ولا ماءٌ هناكَ ولا عيونُ
ولا نَبْتٌ عليهِ ولا حَياةٌ　　ولا نَسمٌ ولا غيثٌ هَتُونُ (٤)
جنازةُ مَيّتٍ لا نعشَ فيها　　ولا أيدٍ حملنَ ولا أنينُ
قرينُ الأرض ليس يغيبُ عنها　　ولكنْ لا يواصِلُها القرينُ (٥)

---

(١) تفنن كثير من الشعراء في وصف القمر وتعد هذه القصيدة من أبدع ما جادت به القرائح في الشعر الحديث وهناك قصائد أخرى جيدة جميلة نذكر منها قصيدة أو موشحة لخير الدين الزركلي مطلعها :

لم تبق أيدي الحادثات ولم تذر　　فعلام تضحك في سمائك يا قمر

وقصيدة لمحمود غنيم وأخرى لخالد الشواف (طالع هذه القصائد في المجلد الأول من مجلة « الكتاب » جزء مارس سنة ١٩٤٦) .

(٢) سفين وسفن وسفائن : جمع سفينة .　(٣) الخود : الصبية .

(٤) الغيث الهتون : المطر المتتابع .　(٥) القرين : الزوج . العشير .

يدورُ بها ولكنْ حينَ يَدْنو — يفرُّ فلا يجيبُ ولا يلينُ
كمعشوقٍ يداعبُ ذاتَ خِدْرٍ — فلا يُعْطِي الوصالَ ولا يبينُ (١)
فكم بَسَمَتْ لمرآهُ ثغورٌ — وكم سالتْ لمرآهُ شؤونُ (٢)
وكم ذَكَرَ المحبُّ به حبيباً — وكم نسِيَ الخدِينَ به خدينُ (٣)
وكم نَظَرَ المَشُوْقُ به جمالاً — وأبْصَرَ وجهَ درهمِهِ الضّنينُ
وكم شَكَتِ العيونُ إليه وَجْداً — إلى أن أصبحَتْ شَكْرَى العيونُ (٤)
تحدّقُ فيه لم تطرفْ بجَفْنٍ — كأنَّ العينَ ليس لها جفونُ (٥)
وتصفَرُّ النجومُ إذا تَبدَّى — كما يصفَرُّ من حَسَدٍ جبينُ
يسيرُ فتختفي من جانبَيْهِ — نوافرَ وهو مجتازٌ رزينُ (٦)
كما طلَعَ المليكُ عليه تاجٌ — فأطرقتِ الوجوهُ له تدينُ (٧)
كأنَّ كواكبَ الأفلاكِ دُرٌّ — تَبَدَّى بينها حَجَرٌ ثمينُ
لهُ من شمْسِنا جزءٌ منيرٌ — وليسَ لنا بهِ جزءٌ سخينُ
حَبَتْهُ مع الضّيا حَرًّا فأعطى — ضِياءً نِعْمَ ما أدَّى الخؤونُ (٨)
فيا شبهَ الحبيبِ حويتَ منهُ — بَهاهُ وفاتَنا منك الفتونُ
وقاكَ اللهُ كم تُفْني قروناً — ولا تُفْنِي محيَّاكَ القرونُ (٩)

---

(١) بان يبين بياناً : ظهر . وبان يبين بيناً : فارق . والمعنى الثاني هو المقصود هنا .
(٢) شؤون جمع شأن : العرق الذي تجري منه الدموع يقال : فاضت شؤونه .
(٣) الخدين : الحبيب والصاحب .
(٤) شكرى : ممتلئة . يقال : شكرت الناقة فهي شكرى وشكرة : امتلأ ضرعها .
(٥) طرف : أطبق أحد جفنيه على الآخر . (٦) نوافر جمع نافرة : أي شردت وأبعدت .
(٧) تدين : تخضع وتذل . (٨) المعلوم أن القمر يستمد النور والحرارة من الشمس فيصفه الشاعر بالخيانة لأنه يعطي النور ويحتفظ بالحرارة .
(٩) المحيا : الوجه .

وكم تُحْيي الظلامَ وأنْتَ مَيْتٌ ... وكم تعلو النُّجومَ وأنتَ دُونُ(١)
حَوَيْتَ عجائباً فدعاكَ قومٌ ... إلٰهاً حُبُّهُ في النّاسِ دِينُ(٢)
تُخَبِّرُهُمْ بأعدادِ الليالي ... ويلزمك السّكوتُ فما تُبِينُ(٣)
وتصدقهمْ وفيكَ النَّقْصُ طَبْعٌ ... وعهدي كل ذي نقصٍ يَمينُ(٤)
لنا في كلِ شهرٍ منكَ شَكٌّ ... ولكن ليسَ يمهلهُ اليقينُ
لو أنّ نظيرَ شكّكَ كلُّ شَكٍّ ... لما طالتْ بصاحِبها الظنونُ(٥)
كأنك في هلالك نصلُ سيفٍ ... أجادتْ صَقْلَ صَفحَتِهِ القُيُونُ(٦)
تقطَّعُ منك أعناقُ الليالي ... وليسَ سوى الأنامِ لها وتينُ(٧)
تُرى فيك البداءة كيف كانتْ ... قديماً والفناء متى يكونُ

(١) يقول : إن القمر دون النجوم علوا ومع ذلك يعلوها مكانة وبهاء في هذا الكلام معارف علمية صحيحة موشحة بخيال شاعر .

(٢) يشير إلى أن من الناس من عبد القمر كالإسمعيليين سلالة إسمعيل بن إبرهيم وهاجر ولعل أهلة الفضة التي كانوا يضعونها في أعناق الجمال رمز إلى تلك العبادة .

(٣) أبان يبين : أفصح . (٤) مان يمين مينا : كذب .

(٥) في مطلع كل شهر قمري يبعث الهلال بالشك إلى قلوب الناس إذا تعذرت رؤيته ولكنه شك لا يلبث أن يتبدد سريعاً في ضوء اليقين عندما يرى الناس الهلال بادياً في سمائه فما هو مثل الشكوك التي تساور قلب الإنسان ولا تريد عنه متحولا . والهلال في يومه الأول هو هلال الشك فعين تثبته وأخرى تنفيه ولقد شبه ابن الفارض الرجل الصب النحيل بالشبح الذي لا ظل له وبهلال الشك فلولا أنينه ما رأته العين قال :

قل تركت الصب فيكم شبحاً ... ما له مما براه الشوق في
كهلال الشك لولا أنه ... أنّ عيني عينه لم تتأي

(٦) القيون جمع قين : الحداد أو الصانع . واشتهرت القيون بصنع السيوف وصقلها . ولما صار سيف عمرو بن معدي كرب وكان يسمى الصمصامة إلى الهادي وصفه ابن يامين البصري فقال من أبيات :

أخضر اللون بين خديه برد ... من ذعاف تميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق ناراً ... ثم شابت به الذعاف القيون

(٧) الوتين : عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلها . جمعه : وتن وأوتنة .

وهل يبقى الوجودُ بلا فناءٍ   وهل تعفو عن الشهبِ المنونُ (١)
كوائنُ ليس يدري السِرَّ منها   سوى مَنْ أمرُهُ كافٌ ونونُ (٢)

الحسان في البحر

ليس غريباً على ابن الاسكندرية عروس البحر أن تهتز فيه شاعريته عندما يرى الحسان يغتسلن في البحر ويرتمين في أحضان أمواجه :

لله دَرُّ البَحْرِ من مُصَوِّرِ   يُصَوِّرُ الجسمَ جَلِيَّ المَنْظَرِ (٣)
ويُظْهِرُ الأعضاءَ تحت المِئْزَرِ   كأنَّها بارزَةٌ لم تُسْتَرِ (٤)
من أسودٍ وأبيضٍ وأحمرِ   كالرَّوضِ قد حَلاَّهُ نورُ القمَرِ
ببُرْدِهِ الشَّفَّافِ فوق الزَّهَرِ   يُظْهِرُهُ رَسْماً وإنْ لم يظْهَرِ (٥)
مثل نساءٍ باهياتِ الحوَرِ   أقبَلْنَ يَغْتَسِلْنَ لا من وَضَرِ (٦)
تبرُّداً بماءِ تلكَ الأبْحُرِ   يَغُصْنَ بين مائِها والحجَرِ
مؤزَّراتٍ بثيابِ الشَّعَرِ   على ثيابٍ من نسيجِ الإبَرِ (٧)
رقيقةٍ شفّافةٍ للبَصَرِ   فتظهرُ الجسمَ بأبهى منظرِ

---

(١) المنون : الموت . الدهر .   (٢) ديوان « تذكار الصبا » ص ٣٤ – ٣٦ ومجلة « البيان » . السنةالأولى . الجزء العاشر . ولقد اختلف المصدران في قافية عجز البيت الأول فاعتمدنا نص مجلة البيان لأن القصيدة نشرت فيها وناظمها حي يرزق .

(٣) لله دره : صيغة للتعجب أي لله ما خرج منه من خير . ويقال در دره : كثر خيره .

(٤) المئزر : الإزار : كل ما ستر الإنسان .

(٥) البرد : الثوب .

(٦) الحور : البياض . يقال حورت العين : اشتد بياض بياضها وسواد سوادها فهي حوراء . الوضر : الوسخ .

(٧) مؤزرات : متسترات متغطيات .

كأنَّها ترسمُهُ للنَّظَرِ بكفِّ (روفائيلٍ) المُصَوِّرِ
لو تسألُ الوارِدَ بعد الصَّدَرِ عن ذلكَ الماءِ الأُجاجِ الكَدِرِ [١]
لقالَ قد وردتُ عَذْبَ الكَوْثَرِ [٢] رغماً عن الحورِ فياربِّ اغْفِرِ [٣][٤]

٤ — الشعر التمثيلي

ثارات العرب

حوار بين ليلى المريضة وقد برح بجسمها الداء وبفؤادها الغم وبين حبيبها حسان .

ليلى حزنٌ وهمٌّ يليه الموتُ عن عَجَلٍ هذي حياةُ النِّسا في العالَمِ الفاني
حسان أما تَرَيْنَ بهاءَ الشَّمْسِ غارِبةً
ليلى نَعَمْ وقد مَرَّ عنها شهر نيسانِ [٥]
وصارتِ الأرضُ في فَصْلِ الخريفِ وقد رَمَتْ بأوراقِها من فوقِ أغصانِ
وأصْبَحَ البَرُّ قفْراً لا أنيسَ بهِ كأنَّهُ مُقْلَةٌ من غيرِ إنسانِ [٦]

---

(١) ورد الماء : صار إليه وبلغه . الصدر : الرجوع عن الماء . الأجاج : الماء الملح المر .

(٢) الكوثر : اسم نهر في الجنة .

(٣) تملي علينا مراعاة النظير ومذهب الشيء بالشيء يذكر أن نشفع هذه القصيدة بل هذا اللوح من الصور الجميلة الفاتنة بأبيات قالها شوقي يصف فيها السابحات الفاتنات وقد ضمهن البحر وإنها لأبيات هي في الذروة العليا من الشعر المصور المبدع قال :

جئنه في معاصم ونحور فكسا معصماً وآخر عرى
وترى الغيد لؤلؤاً ثم رطباً وجماناً حوالي الماء نثرا
وكأن السماء والماء شقا صدف حملا رفيفاً ودرا

(٤) ديوان « تذكار الصبا » ص ٩٢

(٥) نيسان : أبريل

(٦) إنسان العين : سوادها أو ما يرى في سوادها .

حسان لكنْ سترجِـعُ أوراقُ الغصُونِ كما | كانتْ وتكسو الرَّوابي حُسْنَ ألوانِ
ليلى نعم وهذي جماعاتُ الطيورِ غدَتْ | تسيرُ عَنَّا إلى أهلٍ وأوطانِ
حيثُ الحرارَةُ تُحْيِيها وتُنْعِشُها | فتأنسُ الأرضُ تغريداً بألحانِ
حسان نعم ولكنَّها لا بُدَّ راجعةٌ | إلى هنا شَأْنُها قَبْلاً إلى الآنِ
ليلى نعم ولكنْ أنا هيهاتَ أُبْصِرُها | أو أُبْصِرُ الزَّهْرَ يزهو بين أفنانِ (١)
فإنَّ عمري قصيرٌ لا انتظارَ بهِ | لِعَوْدِها وعذابُ البَيْنِ أفناني (٢)
حسان حبيبةَ القلبِ ما هذا الكلامُ فقَدْ | أجرى الدُّموعَ وأذكاني بنيرانِ (٣)
ليلى ما أجملَ الشَّمْسَ ما أبهى أَشِعَّتَها | كأنَّها وجهُ صبٍّ بائسٍ عاني (٤)
تُلْقِي أَشِعَّتَها حُمْراً فنحسبُها | قد كلَّلَتْ هامَةَ الدُّنيا بتيجانِ
ويلمعُ النَّهْرُ في أنوارِها فيُرَى | كأنَّهُ أدْمُعٌ في خدِّ ولهانِ (٥)
ما أحْسَنَ الأرضَ في عيني وأجملَها | كلُّ الحياةِ بها والكلُّ ينساني
يتيمةٌ لا أبٌ يحنو على سَقَمِي | يوماً ولا أُمَّ تُسْلِيني وترعاني
وحيدةٌ لستُ أُلقي في الوَرَى سَنَداً | لذاكَ أصبحَ صرْفُ الموتِ يلقاني (٦)
حسان لا تكفرِي لا تقولي أنتِ واحدةٌ | وها أنا في الوَرَى مِنْ بعدِكِ الثاني
ليلى إني أُحبُّكِ يا روحي ويا أَمَلي | هيهاتَ لم تكُ يا حسَّانُ تهواني
هذا رسولُ مماتي قد دَنا وأنا | أمضي فتَسْلو غرامِي بعد أزمانِ

---

(١) الأفنان : الأغصان .
(٢) البين : الهجران والفراق .
(٣) أذكاني : أحرقني
(٤) الصب : العاشق وذو الولع الشديد . العاني : الأسير .
(٥) الوهان : المتحير من شدة الوجد .
(٦) صرف الموت : كارثة الموت .

حسان إنْ متّ مِتّ بلاشكٍ وأُقسمُ بالْـــحُبّ الصحيحِ وهذا جُلُّ أيماني (١)

أتزعُمين بأني لا أُحِبّكِ قد فطَرْتِ قلبي وقد هيَّجْتِ أحزاني

دخلتُ ذا الحصنَ من عامٍ فكنتُ به من أهلِهِ مؤمناً ما بين أوثانِ (٢)

أرى الجميعَ لصوصاً لا ذمامَ لهمْ الدِّينُ في عُرْفِهِمْ والكفرُ سيّانِ

كانوا ظلاماً على عيني يخالفهمْ طبْعي وينفرُ منهمْ طيبُ وجداني

حتى بدتْ شمسُ حسنٍ منكِ مشرقة شعاعُها من جمالٍ فيكِ فتّانِ

وأصبحَ القلبُ رهناً في يديكِ ولا تؤاخذيني فإنّ الحبَّ ألجاني (٣)

وليس غيرُكِ يُسْلِيهِ فأنتِ لهُ كباردِ الماءِ يُرْوِي غُلَّ ظمآنِ (٤)

---

(١) الأيمان : جمع يمين : القسم .

(٢) هو مؤمن بين أوثان أو هو كالمسيح بين اليهود أو كصالح في ثمود على حد قول المتنبي :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها اللـــه غريب كصالح في ثمود

(٣) ألجاني : مخفف ألجأني .

(٤) المشهد الثالث من الفصل الأول من رواية « ثارات العرب » .

١ – المراجع العربية

نجيب الحداد : ديوان تذكار الصبا . الطبعة الثانية . مطبعة جرجي غرزوزي . الإسكندرية ١٩٠٥

» » : منتخبات نجيب الحداد . الطبعة الثانية . مطبعة جرجي غرزوزي . الإسكندرية ١٩٠٦

» » : رواياته التمثيلية وقصصه .

أمين الحداد : منتخبات أمين الحداد . مطبعة جرجي غرزوزي. الإسكندرية ١٩١٣

إبرهيم اليازجي : لغة الجرائد . دار المعارف بمصر . القاهرة ١٣١٩هـ

» » : مجلة البيان . السنة الأولى . ١٨٩٧/١٨٩٨

» » : مجلة الضياء . السنة الأولى . ١٨٩٨ / ١٨٩٩

عيسى إسكندر المعلوف : الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية ج ١ و ج ٢ المطبعة المخلصية . صيدا ١٩٤٥

مارون عبود : رواد النهضة الحديثة . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٥٢

فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية . ج ١ المطبعة الأدبية . بيروت ١٩١٣ وج ٤ المطبعة الأمريكانية . بيروت ١٩٣٣

جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق . ج ٢ مطبعة الهلال . القاهرة ١٩٠٣ وتاريخ آداب اللغة العربية . ج ٤ الطبعة الثانية . مطبعة الهلال القاهرة ١٩٣٧

لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر . وتاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٢٦

أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي . الطبعة الحادية عشرة . مطبعة الرسالة . القاهرة ١٩٥٢

عباس محمود العقاد : ابن الرومي حياته من شعره . الطبعة الثانية . مطبعة حجازي . القاهرة ١٩٣٨

خليل مردم : ديوان علي بن الجهم . منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق . دمشق ١٩٤٩

قسطاكي الحمصي : أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر . المطبعة المارونية • حلب ١٩٢٥

بولس قرألي : السوريون في مصر . المطبعة السورية . القاهرة ١٩٢٨

أسعد طلس : مصر والشام في الغابر والحاضر . دار المعارف بمصر . القاهرة ١٩٤٥

شبلي الملاط : ديوان الملاط . المطبعة الأدبية . بيروت ١٩٢٥

إبرهيم عبده : كتاب جريدة الأهرام . دار المعارف بمصر . القاهرة ١٩٥١

جاك تاجر : حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر . دار المعارف بمصر ١٩٤٦

عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر . ج ١ و ج ٣ دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٤٩

٢ ـ المراجع الأجنبية

GABRIEL HANOTAUX : Histcire de la Nation Egyptienne. Tome VII. Plon. Paris. 1940.

DIVERS HISTORIENS & ARCHEOLOGUES : Précis de l'Histoire d'Egypte. Tome IV. : Instituta Poligrafico dello Stato. Roma 1935

A. DEBAY : Hygiène & Psychologie du Mariage. Dentu. Paris 1902.

R.J.S. Mc DOWALL : Sane Psychology. John Murray.London 1944.

فهرست

الفصل الأول

عصر نجيب الحداد

الفصل الثاني

نجيب الحداد في عصره

الفصل الثالث

جوانب نجيب الحداد

الفصل الرابع

منتخبات من آثار نجيب الحداد

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
في شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥٣





مجمـــوعة

نوابغ الفكر العربى

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربى فى جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربى فى العصر الحاضر من كل قطر وبلد فهى تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد فى كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعانى مبين الأغراض ملحوظاً فى اقتباسه أن يعزز الترجمة والنقد بالشواهد والأمثال .

فالمجموعة بهذه المثابة دائرة معارف كاملة تنقل الأدب الحى كما أوحت به قرائح الأدباء . وإنها لذخيرة حديثة تضاف إلى ذخائر الأقدمين ، وليس قصاراها أنها تعريف بها وحكاية عنها ، فهى تحية العصر الحاضر للعصور الماضية ، وهديته إلى العصور المقبلة ، يرجى أن يحمدها له عشاق الضاد ، كلما جرى بها قلم أو هتف بها لسان .

● ظهر منها

١ — ابن رشد	بقلم عباس محمود العقاد
٢ — الجاحظ	بقلم حنا الفاخورى
٣ — الشيخ نجيب الحداد	بقلم عادل الغضبان

● يظهر قريباً

٤ — محمود سامى البارودى	بقلم عمر الدسوقى
٥ — ابن زيدون	بقلم شوقى ضيف
٦ — الشيخ ناصيف اليازجى	بقلم عيسى ميخائيل سابا

● تحت الطبع

عدد وافر من كتب هذه المجموعة لجمهرة من نوابغ الفكر القدامى والمحدثين

ثمن النسخة ١٢٥ مليماً